الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر_ بسكرة

كلية الآداب واللغات

قسم الآدب واللغة العربية

البعد الديني في ديوان " قدر حبه "

لمحمد جربوعة

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية

تخصص: أدب حديث ومعاصر

إعداد الطالبة:

كنزة بوشريط

إشراف الدكتور:

عبد القادر رحيم

أعضاء اللجنة	الرتبة العلمية	الصفة
فاطمة دخية	دكتورة	رئيساً
عبد القادر رحيم	دكتور	مشرفاً ومقرِّرا
غنية بوضياف	دكتورة	مناقشا

السنة الجامعية:1437هـ ــ 1438هـ

2016م ــ2017م

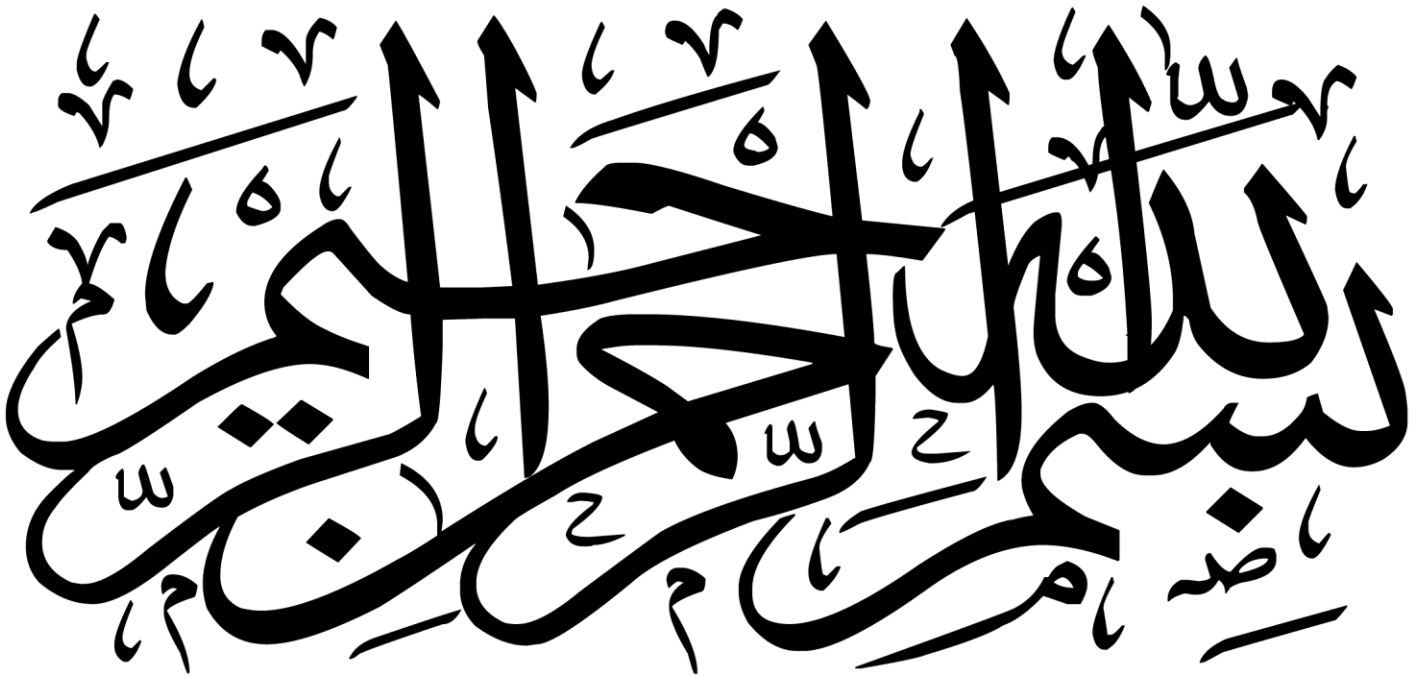
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتوجه أولا بالحمد والشكر للمولى عز وجل على

نعمة التوفيق لإنجاز هذا العمل.

ثم كل الشكر والتقدير والاحترام إلى أستاذي المشرف " عبد القادر رحيم "، الذي تشرف عملي هذا بالسير وفق توجيهاته وإرشاداته ونصائحه القيمة، كما لا يفوتني أن أحييه على ذلك

الأسلوب الراقي الذي يبديه للطلبة جعله الله في ميزان حسناته

اللهم آمين.

كما أوجه شكري لكل الأساتذة المشرفين على مناقشة هذه المذكرة.

إلى جميع أساتذة قسم الآداب واللغة العربية بجامعة محمد خيضر بسكرة أقدم أثنى

تعابير الشكر والامتنان على كل الجهد المبذول في سبيل العلم على رأسهم الأستاذ

" جودي محمد منصور " و" الأستاذة آقطي نوال "

مـــــــقـدّمـــــــــة

مقدمة

عرف الشعر أول ما عرف بأنه ديوان العرب، فاستوعب أخبارها وأنشد أفراحها وندب أتراحها، إذ كان متنفسها المصاحب لجولات شهيقها وزفيرها، وعزمهم به هذا لم يكن خبط عشواء، وإنما ليقينهم به النوع الأدبي الأمثل للتعبير عن ما يختلج النفس من الخواطر وضروب الأفكار المثيرة والمؤثرة، ولأنه كذلك لم يخل في أي عصر من عصوره من أن يتخذ كقولٍ هادفٍ، يسعى إلى تحقيق نتائج مثلت الحلم المرجو للشاعر، الذي باتت الصورة المثلى للواقع مصدر إلهامه ومبعث إبداعه، فكانت الحكمة مثلاً ميزة أساسية للشعر الجاهلي، وللفحوى الديني استحواذ على شعر العصر الإسلامي، وكان لتيار الزهد نصيب من شعر المرحلة الأموية، والذي ازدهر في شعر المرحلة العباسية واستمر هذا النوع من القول (الهادف) إلى الوقت الحالي بطَرق مختلف المواضيع المُرَمِّمةُ لِلمفاسِد وإن عاد ذلك إلى شيء فإلى وعي الشاعر بالأهمية المطلقة التي هو عليها البعد المعرفي والفكري بالنسبة للشعر، وما يفرزه من قيمة ذاتية تجعل منه ذو الوزن الثقيل المكمل للممكنات الفنية والجمالية المتاحة له.

ولأن مجال الحديث هو الأدب الهادف وبالضبط الشعر، فلن يكون أحسن التمثيل من غير الشعر ذي الفحوى الديني، لذلك كان " **البعد الديني في ديوان قدر حبه لمحمد جربوعة** " مناط دراسة ترنو إلى تقصى هدفية إن صح القول الشاعر" محمد جربوعة " من خلال توظيف المعنى الديني كأمثل من يأخذ بيده نحو تحقيق التوجه الفكري الخاص به.

ولأن الحس الديني شديد الوقع على نفس كل مسلم، وبما أن قصائد المدونة"قدر حبه" قد تعطرت بنفح طيب سيد الأخلاق عليه أزكى الصلوات والسلام، قادني هذا لاتخاذه موضوعًا للدراسة، يستجلي الأخلاق المحمدية من حيث حضورها في المدونة فكيف كان ذلك الحضور؟ وهل كان قول محمد جربوعة في الرسول الكريم على تأثر بقصائد سابقيه في مدحه عليه الصلاة والسلام؟ وإذا كان كذلك فما هي خصِّيصته في هذا القول؟ وما الذي يرنو إليه به؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات أنجزت الدراسة وفق الخطوات الآتية: مقدمة مدخل فصلان وخاتمة.

حيث خصص المدخل لإبراز أهمية البعد المعرفي بالنسبة للشعر، ومن ثم أهميته كبعد ديني.

وكان عنوان الفصل الأول: صورة الرسول عليه الصلاة والسلام في ديوان "قدر حبه" لمحمد جربوعة، أبرزت أولا مختلف الصفات التي كانت محل إعجاب الشاعر محمد جربوعة للرسول الكريم، وثانيا الاعتراف بالعجز عن الإحاطة بمدحه عليه أزكى الصلوات والسلام.

أما الفصل الثاني فكان بعنوان، حب الرسول في " ديوان قدر حبه " لمحمد جربوعة وأبرزت كيف كان ذلك الحب في الديوان، وماذا يترتب عن حب الرسول عليه أزكى الصلوات والسلام فكان توضيح ذلك في: أولا ملامح زهدية في ديوان " قدر حبه " لمحمد جربوعة، وثانيا اللغة الصوفية في ديوان " قدر حبه ".

وقفيت البحث بخاتمة تضمنت مختلف النتائج التي توصلت إليها من خلال مراحل عملي هذا.

ونظرا لطبيعة مادة الدراسة قد اخترت المنهج الأمثل لصقلها وتقديمها ألا وهو المنهج الوصفي التحليلي، الذي عمل على تقصي مختلف الظواهر وصفا وتحليلا.

وتمت الاستعانة في هذا البحث بمجموعة من المصادر والمراجع كان لها الفضل في دعمه وإثرائه، من أهمها: الإسلامية والمذاهب الأدبية "لنجيب الكيلاني"، تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي "لشوقي ضيف"، التطور والتجديد في الشعر الأموي "لشوقي ضيف" أيضا، الشعر والشعراء في العصر العباسي "لمصطفى الشكعة"، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق "لزكي مبارك"، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر "إبراهيم محمد منصور" وغيرها.

أما بالنسبة للصعوبات فليس نيل المطالب بالتمني، وكأي مسعى لا بد له من بعض العقبات المتفاوتة، والتي قد لحق بعضها مسعاي، من ذلك كثرة المادة العلمية فيما يخص موضوع البعد الديني مع تقارب أفكارها وصعوبة انتقاء ما هو أهل لأن يمثل الفكرة المبتغاة، إلا أن هوانها مقدر بعونٍ من المولى عز وجل فالحمد والتعظيم له وبتوجيهات الأستاذ المشرف له كل الشكر والتقدير.

مـــدخـل

ينقاد الإنسان بمسمعه إلى نغم الشعر بفطرته، ويجذب الشعر بطبيعته مذاق القارئ بأناقته، وأناقة الشعر وجذبته صفةٌ لنظمٍ وقافيةٍ وأوزانٍ وروي ولغةٍ، وتشبيهٍ في صورة تصقل لشعر الشاعر دلالته، هاته الدلالة ما يتمم لنظمه جذبته، وذاك الانقياد من الأذواق نحو الشعر يكون لحظة إمتاعها سمعيا بما يميزه جماليا، مع إقناعها ذاتيا بما يقطنه فكريا ومعرفيا، وهذا الذي (الفكر والمعرفة) يمثل وضع الشاعر ثقافيا.

لأن البعد المعرفي الذي تحتويه النصوص الشعرية لا تُرد لوثته إلى ربة الشعر كما هو معتقد عند الإغريق[1]، أو إلى الشياطين كما كان متصور عند العرب قديما[2]، وإنما مرده انفتاح الشاعر على المجالات الحياتية كافة، وخبرته الوفيرة وثقافته الواسعة، هته الشروط التي وضعها القدماء كشرط رئيس يحقق للشعر متانته ورواجه[3]، إضافة إلى عدم تردد الشاعر في الخوض في غمار الكشف وإلقاء النور على مختلف الحقائق

---

[1] في الأدب الإغريقي المبكر، عزا الشعراء قدراتهم إلى ربات الفنون، اللاتي يلهمن من يرعينهم بوسيلتين مميزتين، فيمنحن الإلهام في دفقه شعورية لحظية مثلما نجد على سبيل المثال في وصف الشاعر الملحمي في الأوديسا " تثير الربة أحاسيس الشاعر الملحمي ليتغنى بالأعمال المجيدة"كما يمنحن موهبة شعرية دائمة ففي الأوديسا أيضا يوصف الشاعر الأعمى "ديمودوكس" بأنه"الشاعر الخير الذي أحبته الربة بصفة خاصة، ذلك أنها اقتلعت عينه ومنحته عذوبة الإنشاد. ينضر، بنيلوبي مري: العبقرية تاريخ الفكر، ترجمة محمد عبد الواحد محمد، دار عالم المعرفة، د ت، ط 12000، ص 27.

[2] ارتبطت قضية الإبداع الشعري عند العربي قديما بعالم الجن؛ أي كان لشعراء العرب شياطين تنطق على ألسنتها، والجني هو الذي يملي على الشاعر شعره، فيتحول دور الشاعر هاهنا من المبدع إلى الراوية عن الجني، فكان على سبيل المثال "لافظ" صاحب امرئ القيس، وكان "مسحل السكران" صاحب الأعشى، وكان "هبيد" صاحب عبيد ابن الأبرص.ينظر، محمد ابن أبي الخطاب القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق علي محمد البجاري، دار نهضة مصر، مصر، ط1، دس، ص 50- 5.

[3] بن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 2005 ص3.

المجهولة، فنجده رجلا مثقفا متأثرا مؤثرا، متماهيا مع الواقع ملازما له ولقضاياه وأحداثه المختلفة والمتجددة في استمرار، هذا الاستمرار الذي يلازم ثوران وغليان عاطفة الشاعر تلك القنبلة الموقوتة التي هي في أُهبة استعداداتها الفكرية والفنية، "فعن طريق الاتحاد والتمازج بين الإحساسات الفردية للفنان والإحساسات الجماعية يتم استكشاف العلاقات المتداخلة والمترابطة لتنطلق في فيض إنساني تتوحد فيه أعماق الفنان وأعماق الآخرين في لحظة زمنية حيث يتوالى انهمار صوره الواعية للأشياء عن طريق تجسيدها وصقلها وربطها بالخط الفني"[1].

ولكون الشعر محاكاة للواقع نجد فيما روي إعجاب ومدح الرسول عليه الصلاة والسلام به والإثابة عليه، إذ يرى –عليه الصلاة والسلام– أن الحكمة أحد مقوماته فقال: "إن من الشعر لحكمة"[2]، والحكمة في مفهومها العام عصارة خبرة في الحياة وفهم لأسرارها فتنهل من معين الفلسفة وتنشأ من إعمال الفكر والتعمق في درس الحياة واستكشاف أسرارها[3]، ولعل هذا أو بعضه ما تشترك فيه الحكمة مع المسوغ الإبداعي للشاعر إضافة إلى أن إدراج الحكمة ضمن الشعر يؤكد الوظيفة التأثيرية والتربوية للشعر، ففي تأثيرية الشعر يقول عبد السلام ياسين: "لعل الموعظة المكتسية حلة شعرية تنفذ إلى

---

[1] رجاء عيد: فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، منشأة المعارف، د ب، (دط)،2000، ص 4–5.

[2] البخاري محمد بن إسماعيل: الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، دار الصديق، الجبيل، المملكة العربية السعودية ط2، 2000، ص301.

[3] ينظر محمد توفيق: الأمثال العربية والعصر الإسلامي (دراسةتحليلية)، دار النفائس، د ب، ط 1، 1988، ص 48.

أعماق النفس. لعلها تطرق في ليل الغفلات أبواب القلب. لعلها تسري بالمستيقظ على ضربات التذكير بالآخرة من دار لدار، من حال لحال، من نمط عيش إلى حياة إيمان"[1] ذلك كون الشعر صياغة فكرية تحاكي الذوات وتستفز مشاعرها بلغتها الجمالية المميزة.

استطاع الشعر بخاصيته الفنية خلال فترات كثيرة من التاريخ أن يحدث هزات عنيفة، وتغييرات جذرية في مظاهر الحياة، وأن يحدث ثورة هائلة في أعماق النفس البشرية أيضا، ذلك بالصدق الذي يمثل الدعامة الكبرى، والتي إذا انهارت تناثرت كل مقوماته، فالصدق قيمة يعتز بها أي فن من الفنون، وفي غيابه يصبح الفن تعبيرا زائفا عن النفس والحياة، وتزويراً لواقع عاشته أو تعيشه البشرية[2].

والفن بلا مضمون يوسم بالفارغ، الذي لم يكن يوما أهلا للتميز والتألق والإثارة، هته الصفات التي ألحقت في أحايين كثيرة بالفن لكن متى؟ لما يعبأ بطاقات المضمون، الذي تتمثل دعامته من الأفكار والفلسفات المستمدة من واقع البشر الذي يتطابق حتماً مع واقعية الحياة والنفس والإنسانية، الذين يمثلون مادة الفن ليمثل الصدق والأصالة والمضامين السليمة مقوماتها، كما يرى " نجيب الكيلاني " أن الفن بلا مضمون خواء

[1] عبد السلام ياسين: المنظومة الوعظية، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1996، ص 4.

[2] ينظر نجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1987، ص 16.

وفراغ، والأكواب الفارغة لا تروي ظمأ والثمرة العفنة لا تغني النفس شيئا، والعشوائية في كل شيء سذاجة، فلا بد للفن من مضمون[1].

ففي هذا الصدد وخلال حديثنا عن فضائل الشعر وقدراته ومقومات الفن ومادته تجدنا نوعا ما نلتقي وتيمات أساسية لعقيدة شاملة تسعى إلى تنظيم الحياة وتفسيرها،استجابة لحاجات النفس، ووسيلة لتقويم العلاقات العامة والخاصة، فالدين مثل أعلى يتغنى بالفضائل الإنسانية ويدعو إليها، وهاهنا تكمن نقطة الالتقاء بين الدين والفن إذ إن كليمهما يتبلور من المادة نفسها هي الحياة والنفس الإنسانية[2]، فنجد في هذا المقام " محمد قطب " خلال حديثه عن الفن الإسلامي يقول" هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان، هو الفن الذي يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق، فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال. ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود "[3]، فيقوم الفن على الصدق والأصالة والمثل العليا، بغية الإمتاع والإفادة والتحريض على بناء مجتمع أفضل وبغية الدين لا تخرج عن إسعاد البشرية، وسيطرة المثل الفاضلة على علاقات البشر، والتهيؤ لعالم آخر، عالم أفضل، والتنفير من المظالم والانحرافات والعمل على هدمها[4].

---

[1] ينظرنجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص 13.

[2] ينظرنجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص 11.

[3] محمد قطب: مناهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط 6،1973 ص.6

[4] ينظر نجيب الكيلاني، المرجع السابق، ص 14.

وقصة التقاء الفن بالدين قصة قديمة ممتدة إلى أعماق التاريخ، ونسوق على سبيل المثال الأساطير الإغريقية القديمة، فقد نسجت في ملاحم ومسرحيات أبطالها من آلهة تنوعت أسماؤهم واختصاصاتهم[1]، إله الأمواج وإله الشمس وإله الشعر إله الخير..[2]. وللمسرح الديني خاصة والفنون الدينية عامة مكانة مرموقة في التاريخ الفني للبشرية حيث علل" نجيب الكيلاني" هذا الإرباط الوثيق بين الدين والفن بارتباط الدين ومثله ومبادئه بواقع حياتهم المعاصرة لهم، فكان للدين سلطان القانون والتقاليد وإصدار الأحكام فاستطاعت هذه الرحابة في الدين أن تفتح صدرها لانفعالات الفن، وانطلاقاته البعيدة المدى، فكان ينبوعا للمضامين الفكرية والفنية، ومصدر من مصادر إثرائها ونضوجها – هذا من جهة – ومن جهة أخرى كان التقاء الدين مع الفن نتيجة لالتقائهما في الهدف وتقاربهما في الوسيلة،مع اختلاف في الأشكال، وتناغم في المضامين[3].

ولما كان الجانب الديني مرجعا أساسا ينهل منه الفنان ويستعين به ليفجر انفعالاته ويصوغ إمكاناته الإبداعية، كانت العقيدة الإسلامية بطبيعتها المميزة المصدر الأول للتصور الإسلامي في الأدب، ولا سيما أن الأدب ارتبط بالعقيدة الدينية منذ ولادته، وظل متأثرا بها في مجمل مراحل تطوره، فالعقيدة هي الملجأ الأول للأدب، ومعتقد الأديب ذو أثر واضح على إنتاجه الأدبي وجزء كبير من الإطار العام لتجربته الشعورية، ولا ينفك

---

[1] ينظر نجيب الكيلاني، الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص19.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص14.

[3] ينظر المرجع نفسه، ص19.

الأديب محتاجا إلى مرجعية عقدية ينطلق منها، ولذا فان الأديب ظل مرتبطا بالعقيدة الدينية على مدى عصور طويلة، ومن ثم لم تخل أعماله الفنية في أي وقت من أن يكون تعبيرا عن عقيدة[1].

يرى " عبد السلام ياسين " في منظومته الوعظية أن الأدب الإسلامي يرجى اكتماله يوم تعبئ الطاقات الأدبية بشجاعة وصدق، ويستعمل جماليتها ليبلغ كلمة القرآن وحديث الوحي، ليقف صفا متراصا خلفهما و ليتسرب منه عبقهما، كما ألحق " عبد السلام ياسين" صفة الشجـاعة للأديب ذي التوجه الديني كونه لا يقف مترددا هيابا أن يوصم أدبه بالغرابة إن عبس عبسته الكبرى في وجه مجتمع الاستهلاك، ونضأ حسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وطيس الآداب الماجنة، وسنما وتلفزيون الخلاعة وغيرها[2]، ففي هذا الكلام تأكيد على الوظيفة التأثيرية للأدب عامة وللشعر خاصة.

ففن الشعر وعاء مهيأ قابل لاشتمال كل ما من شأنه أن يثير الذائقة العامة، ومن هنا يوظف الخطاب الديني في هذا الفن بوصفه النوع الأدبي والممثل الأول لمكنون النفس وخواطر الأفكار، يقول الأستاذ " عبد السلام ياسين " في كتابه " الإحسان ": "في كتابي هذا أبدأ كل فقرة بالبسملة، وأرصع كل فقرة في البداية بدعاء قرآني أو نبوي، وأوشيها في آخرها بشعر يرقق الشعور. والشعر بعضه حكمة. روى البخاري في

---

[1] ينظر ماجدة بن محمد الماجد: الأدب الإسلامي مراجعات في النشأة والخصائص، بحث ترقية، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، ص 6.

[2] ينظر عبد السلام ياسين: المنظومة الوعضية، ص9.

كتابالأدب،.... أن أبي بن كعب أخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"إن من الشعر لحكمة" والحكمة كما قال البخاري في مكان آخر هي: "الصواب في غير النبوة "[1]، وفي قوله " وأوشيها في آخرها بشعر يرقق الشعور " إحالة إلى الإنجاز الذي يحققه هذا الفن من إثارة لمشاعر المتلقي، ومن ثم إمكانيته في تغيير أفعاله وتوجيهها، وذلك لما أجيز له من مزايا جمالية تصبغ عليه صفة التأثيرية، ومن ذلك تتأكد للشعر وظيفته التربوية والتعليمية وأيضا ما يؤكد للشعر ما أُلحق له من صفات من ما روي عن فضله في كتاب العمدة وقول" معاوية رحمه الله" " يجب على الرجل تأديب ولده والشعر أعلى مراتب الأدب"[2].

فبتناغم المعطيات الجمالية والفنية للمسوغ الإبداعي للشاعر مع مرامي العقيدة الإسلامية، سيتسنى للمعنى الديني فرصة توجيه سلوك المتلقي وما ينتج عنه وفق ما سنه هذا الدين الذي يمثل منشأ لكل سلوك سوي.

[1] عبد السلام ياسين: الإحسان، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1998، ج 1، ص 78.

[2] بن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، مطبعة السعادة، مصر، ط 1، 1907، ج 1، ص 10.

الفصل الأوّل: صورة الرسول عليه الصلاة والسلام في ديوان " قدر حبه " لمحمد جربوعة في ضوء قصيدة المديح النبوي

أولا: التمدُّح بآدابه وأخلاقه وفضائله عليه الصلاة والسلام

1- في فضل هدايته عليه الصلاة والسلام

2- في طيب نفْسه وجمال سيرته عليه الصلاة والسلام

3- في رحمته عليه الصلاة والسلام

4- في مبادئه عليه الصلاة والسلام

5- في تعامله عليه الصلاة والسلام

ثانيا: الاعتراف بالعجز عن الإحاطة بمدحه عليه الصلاة والسلام

توطئـــة:

يرجع شعر الفحوى الديني إلى عهد النبوة، لما جُهِر بالدعوة المحمدية، وذلك في بعض المحاولات الشعرية ردا على أعداء الدين، فلما ظهر الإسلام لم يرض كثير من عرب مكة بدين التوحيد، فحاربوا الرسول عليه الصلاة والسلام بالسلاح كما حاربوه بالقول، إذ وظفوا بعض شعرائهم للطعن في رسالة الإسلام، وكان على رأسهم "أبي سفيان ابن الحارث"، ولماعزَّ على الرسول عليه الصلاة والسلام ما يفرزه هجومهم من صدٍر عن رسالة الإسلام، وذلك لما يَذِيع من شعرهم في القبائل العربية، اتخذ ثلاثة من خيرة شعراء المسلمين للتصدي لما يزعمه أعداء الدين[1]، وكان شعر"عبد الله بن رواحه " و" حسان ابن ثابت "و" كعب ابن مالك " أشد على قريش من نضح النبل[2]. ويقال أن أول ما جرى به لسان " حسـان ابن ثابت " حين سله على قريش هــذه الأبيات يتحدى بها" أبا سفيان بن الحارث":

هَجَوْتَ مُحَمدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وعندَ الله في ذاكَ الجَزاءُ

فَإنَّ أبي ووالـــــدهِ وعرضي لعرضِ محمد منكم وقاءُ

أتهجوهُ ولستَ لـهُ بــكفءٍ فشرُّكما لخيرِكما الفـــداءُ [3]

---

[1] ينظر شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص 45،47 .

[2] بن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ص 12.

[3] شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 48.

ولعل أشهر قصيدة نضمت في مدح الرسول هي قصيدة " كعب بن زهير" المعروفة بـ " بانت سعاد " أو " البردة " أو " الكعبية " والتي اعتبرت من عيون الشعر العربي، ومن القصائد التي سار بها الركبان، واهتم بها العلماء، وحاول محاكاتها الشعراء في عصورهم المختلفة، وكان أهم ما قدم هذه القصيدة، وأعلى من شأنها المناسبة التي ألقيت فيها وهي إنشاد الشاعر لها بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام، وإصغاء النبي صلى الله عليه وسلم بسمعه الشريف لها، وإعجابه بها[1].

أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكون للفحوى الديني نصيب مما تجود به قرائح الشعراء، وذلك لَمَّا قال للأنصار: " ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم "[2]، فبدأت نصرته عليه الصلاة والسلام قديما بهجاء كفار قريش واستمرت إلى وقتنا الحالي باستعمال الجمالية الأدبية لتبليغ كلمة القرآن والفضائل والمثل تخليدا للقيم والأخلاق التي نادى بها رسول الله عليه الصلاة والسلام، "فالعداء الملحوظ الذي يواجهه الدين الإسلامي اليوم من الغربيين يتطلب من أهله التمسك القوي والتشبث به إلى أبعد الحدود، ويحتاج إلى قوى رادعة تستعمل كل الأساليب المشروعة للحفاظ على

[1] ابن حجة الحموي: شرح قصيدة كعب بن زهير " بانت سعاد " في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق علي حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، ص 1985.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص 47.

ما بقي من رمق، ومن هذه القوى جماعة الشعراء الذين يملكون سلاح الكلمة التي أظهر وقعها قوته وحضوره على مدى التاريخ"[1].

والشاعر الجزائري " محمد جربوعة "، ممن ملك سلاح الكلمة قوية الوقع فيما يخص هذا المجال، حيث مثلت المرجعية الدينية بالنسبة لمجموع شعره حجر الأساس, وطبعا هذا طبيعي جدا بالنسبة لشاعر كان حلم طفولته أن يكون عالم دين[2]، لذلك نجد البذرة الدينية الثورية مدسوسة بين ثنايا قصائده، وقد صرح محمد جربوعة بهذا قائلا : " أنا شخـص لا يتنفس ســوى المطلق العقــديوالعـــراق وفلسطين "[3].فاستأثر الشعر الديني والأسلوب الملتزم في ديوانه " قدر حبه " جل قصائده، وكان للمديح النبوي موقعه في هذا الشعر الديني، ولصورة النبي عليه الصلاة والسلام مكانها الخاص فيه، ولحبه صلى الله عليه وسلم الذي ولد كل هذا استحواذ تام، وأول ما تود الدراسة أن تتعرض له بشيء من التفصيل صورة الرسول في ديوان قدر حبه في ضوء قصيدة المديح.

---

[1] دليلة مكسح: المرجعيات الفكرية والفنية في شعر ياسين بن عبيد، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، إشراف الدكتورعلي عالية، كلية الآداب والعلوم الإجتماعية والإنسانية، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2006، ص47.

[2] محمدجربوعة: أمسية شعرية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 18-03-2017، https://www.youtube.com/watch?v=eMewvisqI

[3] محمد جربوعة: بيان الشاعر العربي محمد جربوعة حول مسابقة أمير الشعراء،9-11-2010، www.aswat-elchql.com/ar/?p=98&a=12854.

أولا- التمدح بآدابه وأخلاقه وفضائله عليه الصلاة والسلام :

أنعم الله علينا نعما كثيرة، حيث أكمل لنا ديننا وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا،قال تعالى﴿ **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ** ﴾[1]

ومن نعمه علينا أيضا أنه منَّ علينا بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه أفضل كتبه وجعلنا خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى ﴿**كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ** ﴾[2]

وذلك بإتباع النبي الكريم والاهتداء بهدية والتخلق بأخلاقه والاقتباس من نوره حيث قال تبارك وتعالى فيه﴿**لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١** ﴾[3]

هذه الأخلاق الكريمة التي جعلت من صاحبها الكريم عليه الصلاة والسلام أهلا لأن يؤتسى به كانت محل مفاخرة وأساس تشييد لشعر شاعر معجب منبهر بشخصية عظيمة ومقام سامق فيقول " محمد جربوعة " في حبه للكريم محمد عليه الصلاة والسلام:

وَشَاعِرٌ يُحِبّهُ

يَعْصِرُهُ فُي لَيْلِهِ الإلهامُ فِي رَهْبَتِهِ

فَتُشْرِقُ العُيُونُ والشِّفَاهُ بِالأنْوَارْ

فَتُولَدُ الأشْعَارُ

---

[1] المائدة: 3.

[2] آل عمران: 110.

[3] الأحزاب:21.

ضَوْئِيّةَ العُيُونِ فِي مَدِيحِهِ

مِنْ عَسْجَدٍ حُرُوفُهَا

وَنُقَطُ الحُرُوفِ فِي جَمَالِهَا

كَأَنَّهَا أَقْمَارْ [1]

فتظهر القصيدة حسبه في أبهى حلة لها، معسجدة حروفها، متلألئة نقاطها بذكر النبي عليه الصلاة والسلام. وللمديح النبوي عند " محمد جربوعة " طابع خاص يميزه عن غيره من مادحي النبي عليه الصلاة والسلام، فيتغنى بسمات النبي عليه الصلاة والسلام ولا يقدمها مباشرة، إذ يقدم لك صورة أو موقفا وعليك تصور الصفة التي يريد إلحاقها بصاحب الصفات الحميدة عليه الصلاة والسلام، لتظهر لنا صفاته عليه الصلاة والسلام من خلال التغني بمواقفه التي شملت كل موجود.

1- في فضل هدايته عليه الصلاة والسلام :

يقول " محمد جربوعة " في هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام، في من له فضل رفع البشرية من أحط الدركات إلى أعلى الدرجات، في من أخرجها من ذل الجهالة، إلى عز دين الإسلام برحابته، هل لا يكون أهلا للحب؟:

يُحِبّهُ مَنْ عَبَدَ الأَحْجَارَ في ضَلاَلِهِ

وَبَعْدَهَا كَسَرَهَا وَعَلَّقَ الفُؤُوسَ فِي رِقَابِهَا

وَخَلْفَهُ اسْتَدَارْ

لِعَالَمِ الأَنْوَارْ

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، البدر الساطع للطباعة والنشر، د ب، ط 1، 2014، ص 184.

يُحِبُّهُ لِأَنَّهُ أَخْرَجَهُ مِنْ مَعْبَدِ الأَحْجَارْ

لِمَسْجِدِ القَهَّارْ [1]

كما قال " محمد جربوعة " في هديه وبيان فظله عليه الصلاة والسلام:

تُحِبُّهُ قَبَائِلٌ

كَانَتْ هُنَا ظِلالُهَا

تَدُورُ حَوْلَ النَارْ

تَرْقُصُ فِي طُبُولِهَا وبَيْنَهَا

كُؤُوسُهَا بِرَغْوَةٍ تُدَارْ

قَلاَئِدَ العِظَامِ فِي رِقَابِهَا

والمَعْبَدُ الصَّخْرِيُّ فِي بُخُورِهِ

هَمْهَمَةُ الأَحْبَارْ

تُحِبُّهُ لِأَنَّهُ

أَخْرَجَهَا مِنْ لَيْلِهَا

لِرَوْعَةِ النَّهَارْ [2]

ولأن هديه عليه الصلاة والسلام استوفى كل معتقد بل كل سلوك، يباهي الشاعر بنبيه وبأهم وأول مبدأ في الإسلام، وهو مبدأ الهداية الذي يرجوه كل حين كل مسلم من رب غفور فيقول:

---

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص183.

[2] المصدر نفسه، ص 188.

تُحِبُّهُ الصَّحْرَاءُ فِي رِمَالِهَا

مَا كَانَتْ الصَّحَرَاءُ

فِي مَضَارِبِ الأعْرَابِ فِي سَبَاسِبِ القَفَّارْ؟

مَا كَانَتْ الصَّحْرَاءُ فِي أَوَّلِهَا؟

هَلْ غَيْرَ لاتٍ وهَوى

والغَدْرِ بِالجِوَارْ؟

هَلْ غَيْرَ سَيْفٍ جَائِرٍ

وَغَارَةٍ وثَارْ؟[1]

حيث عاش الناس قبل الدعوة المحمدية في جهالة وضلال، وذلك عندما توجهوا بالعبودية لغير المولى عزى وجل، فجعلوا النار والقمر والبقر والشمس والحجر، في مقام الخالــق العظيم، ووضعوا أنفسهم مقام العبد الذليل. كانت حياتهم ضياعا، يغشاها ظلاما. هذا الظلام الذي تصور بأبشع الصور، والتي كان الظلم أشدها، وأبشع ظلم عاشته الجاهلية هو وأدهم لبناتهم، هذا الأمر الذي كان من مستفزي إلهام الشاعر فقال: تُحِبُّهُ صَبِيَّةٌ تَذْهَبُ فِي صُوَيْحِبَاتِهَا

لِتَمْلَأَ الجِرَارْ

تَقُولُ فِي حَيَائِهَا

((أَنْقَذَنَا مِنْ وَأْدِنَا))

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 189.

وَتَمْسَحُ الدُّمُوعَ بالخِمَارْ [1]

هي كلمات قليلة لكنها تتضح بمعاني كثيرة ثمينة، أما عن الجملتين الأولى والثانية، فتحمل في دلالتها المصير، فبعد أن كانت البنت تولد ويولد معها مصيرها المحتوم، ألا وهو الدفن وهي حية مخافة ومظنة العار فيها، بهدي النبي أصبح مصيرها أن تولد وتحيى وتذهب وتجيء، لكن في حياء، إذ نوه الشاعر به بوصفة صفة أساس لابد من بنت الإسلام أن تتحلى بها، فهي لن تتزين بزينة أجمل من الحياء لذلك يقول المولى عز وجل﴿**فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ**﴾[2]،ومن صور حياء المرأة في ديننا الجميل تسترها بحجابها الذي تتبدى فيه الحيية كدرةٍ في صدفةٍ تومض بنورٍ بهية، لذلك نجد الشاعر يضيف إلى جملة (تقول في حيائها) جملة (وتمسح الدموع في خمار)، فنجد الشاعر مفتخرا بكل صغيرة وكبيرة ميزت دين الإسلام وسنة الهادي عليه أزكى الصلوات والسلام.

2- في طيب نفْسه وجمال سيرته عليه الصلاة والسلام :

ما أحوجنا نحن المسلمين في هذا اليوم إلى علم بسِيَر نبينا عليه الصلاة والسلام، علها تهدينا للحفاظ على رمق متبقي عندما نلقاه نستبشر بأنه خيرا ما زال في دنيانا، ونأمل بلقياه مجددا، نأمل بلقيا قلوب تتخذ من وميض نبيها متجها، وكما يقال فاقد الشيء لا يعطيه، وما هو أكيد أننا ملَكنا كل ما من شأنه أن يُمْلَك كي نعطيه، وذلك بأخوة نبينا عليه الصلاة والسلام، أليس هو من بكى شوقا للقيانا؟ ولما سؤل عن هذا الشأن أجاب أننا إخوانه الذين سنؤمن به مع عدم رؤيته، هذا أمر أبكاه عليه الصلاة والسلام؛ أي إيماننا بشخص لم نراه، هذا يعني أن الأصل فينا هو الدين هو الرسول عليه الصلاة

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 186.

[2] القصص: 25.

والسلام، هو حب الرسول، وحبه يكون بإتباعٍ لسنته، وتوكلٍ على الخالق للتوجه إلى الخلق بقلب نقي سليم، يكون سببا في سعادة برضا الله في الدنيا، ونجاة لرضا الله في الآخرة.

ففي سيرة نبينا نقرأ بأنه يوصينا بأنفسنا ويقول ((المؤمن مرآة أخيه، إذا رأى فيه عيبا أصلحه))[1]، كما يوصينا بالجار ويقول ((ليس المؤمن من يشبع وجاره جائع))[2]،ومما قرأنا أيضا أن وصاياه لحقت البهائم حتى، فقال لما سقى رجل كلب وجده يلهث قرب البئر((في كل ذات كبد رطبة أجر))[3]، وهذا ما إلا نقطة من بحر يغمر الوجودَ ماءُه ولهذا يقول محمد جربوعة:

فِنجـــانُ قـــهوتـــهِ بمكتبـهِ بـــردْ لم يرتشفْ..قرأَ الـْ (..)، تجمّدَ، وارتعدْ

صلّى على (رَجُلٍ) وسلّمَ، وانحنى للّـه يـــــشكـــــرهُ..ومُبـــــتسمـــا سجـــدْ

(هــذا النبيُّ)-كمن يحدّث نفســهُ- (سيَظَلُّ)-قـال:- حبيبَنـــا وإلى الأبـدْ

سيظلُّ أحـلى مـــا يمرُّ بضوئـــهِ فـــــوق القلوبِ مـــن الهوى والـمعتقدْ

لا الحقـدُ يجعلـــــه أقـــلَّ وســـامةً لا الظلم لا الـطغيانُ لا لغـة الحســـد[4]

صور لنا الشاعر هذه الصورة: شخص يجلس في مكتبه هيأ فجان قهوة، وما كان يدري أنه ليس بحاجة له، وهو ما حدث، لأنه في حضرة القرشي، ويكفيه أن يتشرب من ما روي عنه ولن يظمأ بعدها أبدا، فقط عليه أن يسبح المولى ويشكره على من بعثه منزه

---

[1] البخاري محمد إسماعيل: الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، ص 90.

[2] المرجع نفسه، ص 50.

[3] المرجع نفسه، ص 133.

[4] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 43، 44.

من ما سمي بأمراض القلوب، فقلبه في غنى عن حقد يحجب نور وجهه، وعن ظلم حرمه مولاه على نفسه، وحسد استعاذ منه في قرآنه، حيث يقول الشاعر في آخر القصيدة:

يا نارُ كوني كيف شئتِ فإنهُ ماءٌ سيمكثُ بعدَ أن يمضي الزبد[1]

فالنار هنا هي نار الحقد والظلم والطغيان والحسد كما ذكر الشاعر فالتكون كيفما تشاء، فإن قلب الرسول لن يكترث لها، وسمة الصفاء والنقاء خاصته، فهو مختار الله.

3-في رحمته عليه الصلاة والسلام :

يقول " محمد جربوعة "في من بعث رحمة للعالمين:

نبيٌّ تأسرُ الأطفالَ رحمتهُ

يطيل سجودهُ

كي لا ينغّصَ فرحة السبطينِ

فوق الظهرِ

متعتهمْ بمركبهمْ

ومتعتهُ بسجدتِه وفرحتَهمْ

وكبّر حينما نزلوا [2]

فقد ربطت رحمته عليه الصلاة والسلام في كثير من الأحيان بتعلقه بالصبيان ومداعبتهم وتقبيلهم، فقد روي على الرسول صلى الله عليه وسلم "، عن عائشة رضي الله

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 44.

[2] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 160.

عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتقبلون صبيانكم؟! فما نقبلهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(أَوَ أَمْلِكُ لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟!)[1].

كما جاء في باب " حمل الصبي على العاتق " عن عدي بن ثابت قال: سمعت البراء يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم والحسين -رضي الله عنه-على عاتقه، وهو يقول:(اللهم إني أحبه فأُحِبه)[2].

4- في مبادئه عليه الصلاة والسلام :

يقول محمد جربوعة:

لَوْ أَنّ (أَحْمَدَ) عادَ مِن تحتِ الثَّرَى حُلْوَ الْمُحَيـّـا، بَـاسِمًـــا، مُتَعَطِّـرَا

وَأَتَـــى يَزُورُ المُسْلِمِينَ بِشَوْقِـــهِ يَـــا عَارَنَا... مَـــاذَا نَقُولُ إِذَا دَرَا؟

لَـــوْ أَنّ مَسْـؤُولاً يَـــزُورُ مَدِينَـــةً لَرَشَوهُ حَتَّى صَـارَ (يَنْظُرُ، لاَ يَرَى)

مَنْ سَوْفَ يَرْشِي مَنْ أَطَالَ قِيَامَهُ حَـــــتَّى تَـــحَطّمَ مُتعَبـــا مُتَفَطِّرا؟

مَاذَا سَنَفْعَلُ؟ كَيْفَ نَشْرَحُ عُذْرَنَا وَبِأَيّ وَجْهٍ سَوْفَ نَظْهَرُ يَـــا تَرَى؟ [3]

تتقدم هذه الأبيات مقدمة نثرية أشار فيها الشاعر إلى الحال الذي آلت إليه مجتمعات أمة الهادي محمد عليه الصلاة والسلام، الذي كان للمسلمين فيه أسوة حسنة وأين هو اعتبار هذه الأسوة، حيث أصبحت الرذيلة أشهر من نار على علم تتفشى في بلاد المسلمين بكل شفافية حيث أصبح الطبيعي ليس كذلك والاعتيادي أمره عجيب، فلو

---

[1] البخاري محمد بن إسماعيل: الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، ص 62.

[2] المرجع نفسه، ص44.

[3] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 51.

عاد من اشتاق لنا قبل أن يرانا ومر على (حانة) و(بنوك ربا) و(معاملات رشوة) فما عسانا أن نقول له؟، حيث يقول محمد جربوعة فلو دخل عليه الصلاة والسلام بيوت المسلمين ووجدهم ساهرين على قنوات (روتانا) و (الأم بي سي) وفضائيات الوطنية الراقصة، هل سيستدرج لكي يقول عنها (إنها غير لائقة) ومن ثم تعلن ضده حملات التشويه، وهل سوف يكون مواطنا راضيا بالواقع تاركا كل ما أمره به الله في رسالته..يصلي ويرجع إلى بيته؟[1].

فحزن الشاعر على زمن فيه قائل الحق والآمر بالمعروف والناهي على المنكر، مخالف لقوانين الحياة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر »[2]، وما زماننا إلا موصوف لصفة أطلقها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، منذ أزمان تليدة، وهو الذي لا ينطق على الهوى، إذ بالفعل صِرنا إلى هذا الزمان الذي ينضر فيه الناس بعين الغرابة لشخص يتخذ من نواهي ربه مهابة، ويُظن فيه ظن النقصان لأنه فقط يسعى لأخذ أوامره في الحسبان، حيث أخذت الاستقامة حكم الشاذ، الذي أحيانا ما تجد له مكانة فيتهم المجتهد في الحفاظ على الرمق، بل يُنْظَر إليه على أنه موجود يؤخذ لكن لا يُقَاسُ عليه.

5 – في تعامله عليه الصلاة والسلام :

يقول" محمد جربوعة " مفتخرا بدينه وبنبيه عليه الصلاة والسلام، ويبين أن مبدأ الإسلام هو مبدأ الأخوة والمحبة:

---

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 49.

[2] محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1990، م 2، ص 645.

فَقِيرٌ

يَكْسِرُ الأَحْجَارَ فِي (دِلْهِي)

وَيُخْرِجُ (خبزهُ) مُرّا

وَيَحْلُمُ بِالمَسَاءِ الحُلو

يَطْرُقُ بَابَ صَبِيَّتِهِ

فَتَمْلأُ وَجْهَهُ القبلُ

وَقُرْبَ المَحْجَرِ المِلْحيِّ سَيّدةٌ تُخَبِّئُ وَجْهَهَا فِي الظِلِّ[1]

تَقْرَأُ فَوْقَ كُرْسِيٍّ جَرَائِدَهَا

تُوَبِّخُهُ

إِذَا كَلَّتْ عَزَائِمُهُ

وَتَتْفَعِلُ

فَتَلْمسُ كَفَّهُ الْحُمّى بِجَبْهَتِهِ

وَيَذْكُرُ مِنْ إِمَامِ الْحَيِّ:

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 148.

((أَحْمَدُ كَانَ يُوصِينَا

بِإِخْوَانٍ لَنَا ضَاقَتْ

عَلَيْهُمْ هَذِهِ السُّبُلُ))[1]

لقد بنا الله عزى وجل هذا الدين بناء تاما كاملا، وما مات صلى الله عليه وسلم إلا وقد أتم دين رب العالمين الذي أرسل من أجله، ولذلك يقول عزى وجل﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا** ﴾[2]، فجاءت الشريعة ببيان كيفية التعامل مع كل مخلوق دبَّ على الأرض، أيا كان هذا المخلوق إنسانا كان أو غيره فبينت كيفية التعامل مع الوالدين مع الزوجة مع الكبير مع الصغير مع الجار مع الغريب.... الخ كما بينت الشريعة أدب التعامل مع من ضاقت بهم السبل ومُلِّكوا الإنسان خدمة له، حيث حث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على معاملتهم معاملة حسنة، فقال:(إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم مما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأَعِينوهم)[3].

فإسلامنا إسلام عدل وتساوي، لا يفرق بين غني وفقير، بين خادم ومخدوم، بين أبيض وأسود، فالعزة للجميع إلا من بخل نفسه ولم يتخذ تقى ربه مذهبا، فالغني مثلا بخل نفسه إن لم يتق ربه في فقير ونظر إليه بعين نقصان، والفقير بخل نفسه إن لم يتق الله

---

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص148- 149.

[2] المائدة: 3.

[3] البخاري محمد بن إسماعيل: الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، ص 73.

في نفسه وظن أن غنيا أفضل منه بما ملك من دراهم معدودة، مع العلم أن رازق الغني والفقير جل جلاله هم عنده سواء، ويدخلان مجال المقارنة فقط لما يتفاوتان في تقاه عز وعلا.

إن استقاء هذه الصور الكثيرة المحيلة إلى صفاته عليه الصلاة والسلام في أبيات قصائد " محمد جربوعة " من الأحاديث المروية عن الرسول عليه الصلاة والسلام، دليل على حرص الشاعر على تقوية وتأكيد فكرته بالتمسك بمبادئ أعظم دين على وجه الأرض، ودليل على تأثر وعلم واسع للشاعر للسنة النبوية، فمثل هذه الأفكار لن تأتي عن فراغ، ومن خلال هذه الصفات يبدو تأثر " محمد جربوعة " بالقصائد التراثية للمديح النبوي، ففي هديه عليه الصلاة والسلام يقول " حسان بن ثابت ":

هَدَاهُمْ بِـــهِ بَعْدَ الضَّلاَلَةِ ربُّهُـــمْ وأَرْشدهمْ مَنْ يَتْبَع الحَقَّ يُـــرْشَدِ

وَهَـــلْ يَسْتَوِي ضُلاَّلَ قَوْمَ تَسَفَّهُوا عَمًى وَهُـــدَاةٍ يَهْتَـــدُونَ بِمُهْتَـــدِ

لَقَدْ نَزَلْتَ مِنْهُ عَلَى أَهْـــلِ يَثْرِبٍ رِكابُ هُدىً حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ[1]

وقال " البويصيري " في فضله أيضا:

وَانسُبْ إِلى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ وَانْسُبْ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

[1] حسان بن ثابت: ديوانه، شرح عبدا مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1994، ص 60.

فَـــإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَـــيْسَ لَـــهُ حَـــدٌّ فَيُعْرِبُ عَنْـــهُ نَـــاطِقٌ بِفَمِ[1]

حيث اشتركت صفات النبي عليه الصلاة والسلام، التي زين بها محمد جربوعة إبداعه الشعري مع الصفات التي تغنى بها مادحي النبي صلى الله عليه وسلم، قبل أزمان تليدة وكما أشرنا سابقا إلى الاختلاف الواضح في أسلوب التقديم، فنجد "حسان بن ثابت" أو "البويصري" في مديحهم يذكرون أنه عليه الصلاة والسلام الهادي، الرحيم، ذو الفضل المتسامح، الطيب العادل، المصطفى، صاحب الخلق الرفيع، والتعامل الحسن، وما إلى ذلك من الصفات التي لا تدركها أعداد ولا تجمعها حروف، فهي لمختار الله، أما عند شاعرنا فتلك الصفات وبعد أن تغنى بها سابقيه، أتى دوره حتى يقابلها بمختلف مواقفه عليه أزكى الصلوات والتسليم، أي كيف كانت استجابة حبيبنا لمَّا تثيره مثل هذه المواقف حتى تكون ذكرى علَّه ينفع المؤمنين ذكرها.

أكثر ما اهتم به محمد جربوعة في مدحه ووصفه للنبي صلى الله عليه وسلم هو الجانب الروحاني الداخلي، ولأن العاطفة الغالبة في قصائد الديوان هي المحبة ارتبط المديح بالحب الذي يستوجب تلك الصفات التي كانت سببا لهذا الحب، وهي الصفات المتعلقة بمزاياه صلى الله عليه وسلم الروحية والخلقية والإيمانية في المقام الأول.

[1] محمد يحيى الحلو: البردة شرحا وإعرابا وبلاغة، دار البيروتي، دمشق، سوريا،ط 3 ،2005، ص226-227.

هذه الصفات الروحية والخلقية والإيمانية التي ولدت هذا الحب للنبي عليه الصلاة والسلام مصدر لإلهام الشاعر، ومصدر تألق قصائده حيث يقول " محمد جربوعة ":

حَتَّى الكَرَارِيسُ وَالأَوْرَاقُ، تَشْكُرُنِي إِذَا رَسَمْتُ عَلَيْهَا اِسْمَهُ المَاسِي

وَحِينَ أَكْتُبُ بَيْتًـا فِـي مَحَبَّتِـهِ يُلَوّنُ الأَخْضَرُ العُشْبِيُّ كُرَّاسِي[1]

فتوجه الشاعر إلى أهل الإسلام بهذه الصفات لا لعدم علمهم بها، أو لعدم مرورها على خواطرهم قبل هذا، وإنما قدمت هذه المرة بنبرة عتابية، تحيل إلى مقصد أو مرمى الشاعر الأساسي، وهو توجيه الناس وتذكيرهم، بأن هذا نبيكم وهذه أخلاقه وهذه أحداثه وهذا عبيره الذي لانت له الدنيا ولم تلن لسواه، فحن الشجر لصوته وبكي الحجر، فأين أنتم من هذا يا إخوان الرسول الكريم؟، فأين أنتم من قربه لربه وأخلاقه من تسامحه من لطفه من رحمته من عفوه من كضمه من طيبته من حيائه؟ حيث يقول الشاعر:

(شو بدِّكِ) الآنَ؟ نِصفي في تشققهِ يحاور النصفَ((ماذا الآن يا رجلُ؟))

ما من جوابٍ..فقَدتُ اليوم أجوبتي ولستُ أعرف كيف الردَّ إن سـألـوا

أليس مَن أَنَّ في التعذيبِ أحمدنا؟ أليسَ طهَ؟..فأينَ النـاسُ والـدولُ؟

وَأَيْنَ مَن صَفّ للرّحمنِ أرجلـهُ وقَـامَ فِـي اللَّيْلِ بالقرآن يبتهـلُ

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 54.

وأَيْنَ مَنْ طَافَ منْ بَاعتْ خواتِمَهَا لِتَأْتِي البَيْتَ..أَيْنَ الكُلُّ هَـلْ رَحَـــلُوا

مِن شُرْفَةِ الكَوْكبُ الأَرْضِيِّ أَرْمُقُنَا مِـــــلءَ الشّوَارِعِ مَبْطُوحِينَ لاَ خَجَـــلُ

(....)

أَوجاعُ أحمدَ ضجّت يا محدّثتي وفي المناراتِ جرحٌ ليسَ ينْدمـــــلُ[1]

تظهر ثورة عاطفة الشاعر وغضبه وعدم رضاه على ما يلقاه من إخوانه المسلمين تجاه دينهم عارمة، فعدم حرصهم على الامتثال للرسول الكريم يشكل له هاجس كبير بل قلق أكبر، فجر طاقته الشعرية حيث يختتم هذه الأبيات بهذا الشطر يختتم به ثورته (سرد المرارة شيء ليس يحتمل)[2]، هذا فيما يخص خطاب " محمد جربوعة " لإخوانه من المسلمين.

وهناك خطاب أيضا وجهه الشاعر لغير المسلمين يكون بمثابة بطاقة تعريف لدين الإسلام،عن طريق التعريف برجل كريم حمل له لواء النصر والعزة بالحق الذي لم يخف فيه ويريد منا أن لا نخف فيه لومة لائم، فهو رجل أرسل في الشرق، لكن تعاليمه له ولغيره، هو رجل بعثه المولى ليرسي العزة بين الجميع، بين الكل فهم في الدين إخوان حيث يقول:

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 95،96.

[2] المصدر نفسه، ص.97

سَأَكتبُ للبناتِ الشُّقرِ

في (فيينا)

وللزنجيّ فِي (مالي)

وللهنغارِ في (المَجرِ)

وأكتبُ للهنودِ الحمرِ

للغجرِ

سأكتبُ عنْ (جميل القلبِ)

عنْ أحلى (هَدايا اللهِ)

للبشرِ

(....)

أُخاطبهمْ

عن الضوء الإلهيّ

السنيِّ

المدهشِ المبعوثِ للأممِ[1]

ثم يضيف في تعاليمه عليه الصلاة والسلام في الرفق بالحيوان:

أحدّثُ هِرَّةً في الحبلِ

عن رجلٍ سَيُطْلِقُهَا

ويَسْقِيهَا

لِأجلِ الوَاحدِ الأَحدِ[2]

ويقول أيضا في هذا المقام:

بـ(إسبانْيا)

يَمُوتُ الثورُ

في عينيهِ أدمعُهُ

حَزِينًا

في نَزِيفِ الجرحِ

للرحمن ينتقلُ

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 136.

[2] المصدر نفسه، ص 140.

تمنّى لو يراهُ الآنَ

مَنْ ينهى عنِ (التحريش)

كيْ يَشْكُو لهُ مَا فيهِ مِن أَلَمٍ

ويسألهُ:

((رسولَ الله

في ماذا هنَا التَّيرانُ

تُقتتلُ؟)) [1]

ويقول في احترامه عليه الصلاة والسلام لغير دين الإسلام:

وهذا الراهبُ (المجَريُّ)

يعرفُ أنّ ذاك الديرَ

يحرسهُ برحمتهِ

نبيٌّ كان يَوصِي الجندَ:

((لا تدميرَ

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 164.

لا إحراقَ))

والجنديُّ في الإسلامِ يمتثلُ[1]

ثانيا –الاعتراف بالعجز عن الإحاطة بمدحه عليه الصلاة والسلام:

تُصَادفنا في كثير من الأحيان حالات كثيرة تبدي أسفها وتعلن اعتذارها إزاء بعض المواقف التي حملت في مضمونها تلك الحمولة المعنوية غير المتصورة، التي توهم صاحبها بأنها سوف تتبدى في أبهى حلة لها(وهو لا يعلم بأنه صاحب لموقف لا يحسد عليه)، فيضن من نفسه الإعانة والإغاثة، إلا أنه سرعان ما يتأكد بأن في اتحادهما ضعف، فنجده يلجأ إلى العبارات المعهودة والتي تفيد بدورها بعدم وفاء مخزونه اللغوي لمكنونه المعنوي، كأن يقول لا أدرِي ما أقول، لم أجد من الكلمات ما أعبر به عن مشاعري، لم أدر ما أفعل، الصمت أبلغ من الكلام أحيانا، هذا في بعض الحالات العادية للمواقف العادية، أما عن " محمد جربوعة " فموقفه لا يحسد عليه فعلا وهو يريد القول في خير الأنام، ومع هذا فإن إفصاحه واعترافه عن عجزه يغنيك عن إفصاحه لما يكن بمقدوره، حيث يقول الشاعر:

حَبِيبِي الذِي قَبْرُهُ فِي المَدِينَةِ

مَاذَا تُرِيدْ؟

[1] محمد جربوعة، قدر حبه، ص150.

قَصِيدةَ حُبٍ؟

أَنَا آسِفٌ...

لَمْ أَجِدْ فِي القَوَافِي فُصُوصَ عَقِيقٍ

لـِ (عِقْدٍ فَرِيدْ)[1]

ولأن كل الصفات العظيمة تجمعت وتكاثفت في شخص النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام نجد الشاعر تقف قوافيه عاجزة عن نسج ما يليق بمقامه الجليل صلى عليه الله كما يخاطب الشاعر النبي عليه الصلاة والسلام ويتقدم له بشكوى غياب نفسه بأرض القصيد فيقول:

حَبِيبِي الذِي كَانَ يَوْمًا بمكةَ

إِنِي أَجِيءُ...

أُرَمّمُ قَلْبِي

أُضمِّدُ بالصّبرِ جُرحَ الوَرِيدْ

وَأَحْمِلُ بَعْضَ القَصَائِدِ تَبْكِي

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 169.

اغْتِرَابَ النّبِيّ بِأَرْضِ القَصِيدْ[1]

فالشاعر يريد الرجوع بالقصيدة إلى زمن النبوة، زمن الصحابة الكرام، زمن " حسان ابن ثابت" و" كعب ابن زهير"، يوم كان شهيق القصيدة وزفيرها مزايا الرسول.

ويواصل الشاعر شكواه محاولا تبرئة نفسه من تهمة عدم وفاء شعره لنبيه قائلا:

إليكَ ...

وَقَدْ طَارَ صَوْبَكَ كُلَّ حَمَامِي

وَيَمَّمْتُ شَطْرَكَ وَجْهَ النّشِيدْ

أَنَا يَا حَبِيبِي ..

قَصَدْتُ القَبَائِلَ ذَاتَ مَسَاءْ

وَنَادَيْتُ فِيهَا..

بِأَجْمَلِ صَوْتٍ لديَّ

لِأَجمعَ مَا قَدْ تَيَسَّرَ فِيهَا

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 169- 170 .

مِنَ العِطْرِ مِنْ جَمّةِ الأوْفِيَاءْ[1]

ثم يقف متأسفا للنبي عليه الصلاة والسلام فما من وفي تخضر أشعاره بِسِير النبي:

آهٍ...

أَنَا آسفٌ رَغْمَ كل اجْتِهَادِي

وحاولتُ...

يَعْرِفُ رَبّكَ أَنِّي

رَكِبْتُ جَوَادِي

وَطِرْتُ أُنَادِي:

(أَلَا مِنْ يَمِينٍ

تُسَنِّدُ ظَهْرَ النَّبِيِّ

وَتَكْسِرُ بِالنَّخْلِ رِيحَ الأعَادِي...؟)[2]

فإسناد النبي عليه الصلاة والسلام يكون يوم تشبثنا بديننا ولو كان جمرا، يكون يوم نقبض عليه بالأيادي، و نعض عليه بالنواجذ، حتى نكسر بالنخل ريح الأعادي كما يقول

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 170-171.

[2] المصدر نفسه، ص 173- 174.

الشاعر، بالدين نقهر كل عدو بات الدين الإسلامي بالنسبة إليه مصدر توتر وقلق وغياب النبي في أرض القصيد يعني غياب أخلاق النبي، غياب مبادئ النبي،غياب هدى النبي، غياب موقعه الرسالي في هداية الإنسانية، والشاعر يرى نفسه وأمثاله من الشعراء وإلهامهم من المسؤولين للتبليغ عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ولو آية، لذلك سنجد مما آتي ذكره مدى إحساس الشاعر بمسؤولية نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام بقوافيه.

يقول " محمد جربوعة " راجيا المولى عزى وجل السداد في رحلته الشعرية إلى مناقب خير البرية عليه الصلاة والسلام، خاشيا العجز في الفلاح في هذا الشأن فيقول:

سَأَكْتُبُ عَنْ رَسُولِ اللهِ

يَا ليلى

وَعَنْ مِصْبَاحِ هَذَا الكَوْنِ

أَسْأَلُ رَبّكِ المَنّانَ

أَنْ تَنْقَادَ لِي الألفاظُ

والأبياتُ والجُملُ[1]

ويقول محمد جربوعة في أفضاله عليه الصلاة والسلام، وفي استصعاب تعدادها:

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص135.

جَاءَ المَدِينَةَ.. رِيحُ الخيرَ تَدْفَعُهُ مِثْلَ الغَمَامِ.. وَفِيهِ الخَيْرَ والنِّعَمُ

فاستَلّ شَوْكَ حُفَاةَ الرَّمْلِ مَرْحَمَةً وَسَـــارَ يَتْبَعُهُ الأعْرَابُ وَالعَجَمُ[1]

ثم يقول:

لِعَابِدِ فِتْنَـــةِ الأَحْـــجَارِ يَنْقُشُـــــهَا عَلَى جُلُودِ عَبِيدِ اللاَّتِ إِنْ وَشَمُوا

لِمَنْ تَقُولُ:(فَصِفْ لِي رُبْعَ هَالَتِهِ) أَقُولُ يَصْعُبُ فِي أَوْصَافِهِ الكَلِـــمُ[2]

فالشاعر يقف مفتون بنور النبي البهي عليه الصلاة والسلام إذ يرى فيه صلى الله عليه وسلم كل الصفات التي تستفز إلهامه وتدغدغ شعوره، ومع ذلك لم يفلح في رصد وصف يليق بمقامه الجليل عليه الصلاة والسلام، فلا يوجد له المثل فما عساه العمل:

قِنْدِيلُ آمِنَةَ الوَضَّاءُ يُبْهِرُنِي مِنَ السَّمَـــــاءِ تَدَلَّى حَوْلَهُ الرُّسُلُ

الزَّيْتُ يُدْهِشُ والمشكاةُ رَائِعَةٌ وَمِغْزَلُ النُّورِ كالأحْلامِ إِذْ يَصِلُ

وَلا أُفَكِّرِ فِي وَصْفٍ يُنَاسِبُـــهُ لا مِثْلَ هَذَا..ولا فِي وَصْفِهِ مَثَلُ[3]

[1] محمد جربوعة، قدر حبه، ص 127- 128.

[2] المصدر نفسه، ص 127- 128.

[3] المصدر نفسه، ص 96-97 .

ويواصل الشاعر بامتداحه عليه الصلاة والسلام، ثم يعود وينوه على عدم امتلاك القدرة الفردية ولا الجماعية حتى لوصف ربع هالته عليه الصلاة والسلام، فما تكنه تلك العضلة مطلق ممدود، وما تملكه اللغة مقيد محدود:

هَذَا النّبِيُّ..اخْضِرَارُ الأَرضِ نَظْرَتُهُ وَبَسْمَةُ الثَّغْرُ مِنْهَـــا الضَّوْءُ يَحْتَشِـمُ

حُـــــلْوَ العِبَـــادَةِ..آهٍ..مَا أَقُـــولُ إِذَا لله يَرْكَـــــعُ، أَوْ للرُّكـــــنِ يُسْتَلَـــــمُ

لَا اللَّوْنُ يُدْرِكُ فِـي اللَّوْحَاتِ قَـــامَتَهُ لا العَاكِفُونَ على اللَّوْحَاتِ إِن رَسَمُـوا

لا الشَّـــــارِحُونَ لِحَرفٍ مِنْ مَعَاجِمِهِ لا الوَاصِـــــفُونَ لِنَارٍ تَحْتَهَـا عَلَـــمُ

لَا النَّـــــاظِمُونَ إِذَا ضَاقَتْ مَذَاهِبَهُمْ مُسْتَنْجِدِينَ بِبَعْضِ الشِّعْرِ إِنْ نَظَمُـوا[1]

فلما ضاقت السبل على الشاعر، ولم يجد جدوى من محاولة وصفه ومدحه وتعداد مناقبه عليه الصلاة والسلام ارتئ السكوت، والتمس العذر لنفسٍ حاولت جاهدة نسج ما يليق بأحورٍ لكن ما استطاع نظم:

يَكْفِي السُّكُوتُ..وَعُذْرُ الصَّمْتِ فِي شَفَةٍ ظَلَّتْ تُحَاوِلُ لكن مَا اسْتَطَاعَ فَمُ

يَكْفِـــي الوُقُـــوفُ بِوَادٍ مَـــا لِسَـــالِكِهِ مِـــنَ النِّعَالِ لِيُلقِي، أَوْ لَـــهُ قَدَمُ

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 130-131.

يَكْفِـــي التَأَمُّـــلُ فِـــي مَرْوِيِّ عَـــائِشَةٍ (كـــانَ النبيّ قُرآنا) كلـــهُ شيـــم[1]

لكن الملاحظ أن ما أحنى قامة الشاعر ليس فقط عجزه عن الامتداح وفشله في إلحاق وصف مناسب للنبي الكريم عليه صلوات الله وسلامه، وإنما نجد قلبه أيضا عاجزا ليس بوافر لحب نبينا الكريم،نجده أصغر من أن يستوعب ذلك الحب:

قَدْ كُنتُ أَدْعُو أَنْ أُحِبّ محمدَا والآنَ أَدْعَو عَلّ ربكِ يَسْتُرُ

فَأَنَا صَبِيٌّ فِي المَحَبَّةِ فَاشِـــلٌ قَلْبِي صَغِيرٌ خَائِفٌ يَتَقَهْقَرُ

وَأَنَا أَحَاوِلُ أَنْ أُحِبَّ، وَمُشْكِلِي أَنِّي عَلَى لُجَجِ الهَوَى أَتَكسَّرُ

الحُبُ لِلرَّجُلِ الكَبِيرِ كَصَبنَـــا نَهْرًا بِكَأْسٍ وَاحِدٍ هَلْ نَقْـدِرُ[2]

وقلب واحد لا يكفي ولا يسع لحب حبيب الأمة عليه الصلاة والسلام، ولو كان أكثر ربما يوفّي ما تركه الوحيد، الذي استصعب فهم حبه فينا عليه الصلاة والسلام فيقول الشاعر:

قَلْبِي الوَحِيدُ أَظُنّـــهُ فِـــي حُبِّكُمْ فِـــي مَوْقِفٍ يَـــا سَيِّدِي لاَ يُحْسَدُ

لَـــوْ كَانَ لِي قَلْبَـــانِ كُنْتُ لَرُبَّمَا وَفَّيتُ مَـــا تَـــرَكَ القُلَيْبُ الأَوْحَـــدُ

حَاوَلتُ فَهْمَ الشَمْعِ قَالَتْ شَمْعَةٌ: بِـــاسمِ النّبِي، بِـــدُونِ نَـــارٍ أُوقِدُ

[1] محمد جربوعة: قدر حبه: ص131-132.

[2] المصدر نفسه، ص 24-25.

حَــاوَلْتُ فَهْمَ المَاءِ قَــالَتْ قَطْرَةٌ حُبًّــا أَسِيلُ...ودهْشَــةً أَتَــجَمَّدُ

حَــاوَلْتُ فَهْمَ الضَّوْءِ قَالَتْ نَجْمَةٌ أَصْلُ السَّنَا.. نَبْعُ الضِّياءِ..الفِرْقَــدُ

حَــاوَلْتُ فَهْمَ الحُب فِينَــا نَحْوهُ الأَمْرُ صَعْبٌ، غَــامِضٌ، وَمُعَقّدُ [1]

لكن الشاعر لا يجد نفسه الوحيد الذي يقف قلبه عاجزا عن استيعاب حب مختار الله تعالى عليه الصلاة والسلام وإنما:

لَوْ أَنَّ عُشَّاقَ القَبَائِل كُلّهــمْ نُودُوا لِحُبِ محمدٍ واسْتُنفِروا

وأَتَى مَجَانِينُ الهَوَى بِفُضُولِهِمْ وَتَدَافَعُوا فِي سَاحَةٍ وَتَجَمْهَرُوا

لَمْ يَبْلُغُوا فِيمَا يليقُ بِأَحْــورٍ مَا يَقْتَضِيهِ الهَاشِمِيُّ الأَحورُ

مَاذا سَيفْعلُ عَاشِقٌ مِثْلِي أَنَا إِن كَانَ كُلَّ سَحَابِهِ لا يُمْطِرُ [2]

ولما اجتمع في الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام من هذه الصفات التي تدهش المعجب، وتصم المتكلم وتعجز المبدع، صفات الكمال والجمال هته التي لا تحصر ولا تحصى، إذ أثنى عليه المولى عزى وجل فقال﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[3]، عزم العشاق محاولين التمدح بها وبمن هو أهلٌ لها، أهلُ الخلق العظيم والصفات العلية، والشمائل السنية، لكن سرعان ما يجدون أنفسهم ضحايا بوتق العجز، إذ يجدون أنفسهم

---

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 64-65.

[2] المصدر نفسه، ص 25.

[3] القلم: 4.

غير مؤهلين للثناء على عظمة ورفعة وشموخ هذه الخصال السامقة التي اجتمعت في شخصه عليه الصلاة والسلام، ولما ضاقت السبل على شاعرنا، ولم يجد سبب؟ لحب النبي عليه الصلاة والسلام، لجأ إلى الركن الخامس من إيماننا والذي يواسَى المؤمن بالخلاص إليه، ويهدى بعد ذلك الضلال وحكم الشاعر بـ " قدر حبه " وقال:

نُحِبُّهُ لأنَّهُ بِجُمْلَةٍ بَسِيطَةٍ:

مِنْ أَرْوَعِ الأقْدارِ فِي حَيَاتِنَا

مِنْ أَرْوَعِ الأقْدَارْ

وَنَحْنُ فِي إِيمَانِنَا

نُسَلِّمُ القُلوبَ لِلْأَقْدَارْ [1]

نسلم القلوب للأقدار في حب نبينا وحبيبنا وفخرنا، فما من تفسير لحب من يوم القيامة الكل ينادي نفسي نفسي والحبيب ينادي أمتي أمتي.

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 193.

الفصل الثاني

حب الرسول في ديوان " قدر حبه "لمحمد جربوعة

أولا: ملامح زهدية في ديوان " قدر حبه " لمحمد جربوعة

1-مفهوم الزهد

أ-المفهوم اللغوي

ب-المفهوم الاصطلاحي

2-الزهد والشعر

3-زهد محمد جربوعة في ديوان " قدر حبه " لمحمد جربوعة

ثانيا: اللغة الصوفية في " ديوان قدر حبه " لمحمد جربوعة

1-مفهوم التصوف

2-الشعر والتصوف

3-اللغة الصوفية

4-تجليات اللغة الصوفية في ديوان " قدر حبه " لمحمد جربوعة

أ-في الكتم والتستر

ب-في البكاء والدمع

ج-في حال الاصطلام واللوعة والحزن

توطئـــة

أشرنا سابقا إلى أن الشاعر" محمد جربوعة " اهتم كثيرا في مديحه بعلاقة الحب التي تقوده نحو عبق النبي عليه الصلاة والسلام، ذلك العبق الذي اجتمعت فيه وتكاثفت كل الصفات العظيمة للنبي الأكرم صلى الله عليه وسلم من مزايا روحية وخلقية وقبل كل هذا إيمانية، جعلت من الشاعر نتيجة التذرع بها محباً صادقاً لا يرى لغير محبوبه وجودا لذلك نجده في شعره شاديا بزهده بحب الحبيب النبي عليه الصلاة والسلام عن حب خير متاع في هذه الدنيا ألا وهو حب المرأة، التي لاحظنا النفور الواضح للشاعر منها متفشيا بين أبيات قصائد " قدر حبه "، وهذا النوع من النفور – من المرأة – لم نعتده عند هذه الفئة من المجتمع؛ أي فئة المبدعين بالضبط الشعراء، فالمرأة في العادة هي الملهم الأول لهذا الفنان، أما في " قدر حبه " الملهم الأول والأخير هو خاتم الأنبياء والرسل الحبيب محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فالحب يكون للرجل الكبير للرجل العظيم للرجل الكريم حسب " محمد جربوعة ".

فنجده يقول في قصيدة عنونها بـ " أكبر من غرامك...أصغر من حب المكي":

مَن أنتِ؟ قلبي مِن غرامكِ أكبرُ يحتاج حبّـــا مستحيلا يُبْهِـرُ [1]

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص21.

فالشاعر لم يعد يقنع بحبها، وطموحه أسمى بكثير من حب لا يزيده إلا لوعة وعذاباً إلى حب سيزيده في الرضا بسطة، وفي الفلاح خطوة، وفي الجزاء درجات.

مثْل المُحِيطِ الأَطْلَسِيّ جَوَانِحِي وَكَبَحْرِ (إِيجَةَ) أَضْلُعِي تَتَفَجَّرُ

أَنَـــا كَالْجَوَادِ الشَّرْكَسِيِّ تَمَرُّدِي بِالنَّارِ أَشْهَقُ إِنْ عَشِقْتُ وَأُزْفِرُ

جَرَّبْتُ عَيْنيكِ اللَّتَيْنِ يُقَـــالُ لِـــي مَا مِثْلَ عَيْنَيْهَا يُكْحَّلُ جُؤْذَرُ

(....)

قَلْبِي الرَّهِيبُ الفَوْضوِيُّ يَقُودُنِـــي وَهُوَ الذِي يَدْرِي، يَرَى، وَيُقرّرُ

(....)

قَلْبِي–اعْذِرِينِي–لَيْسَ سَاعَةَ حَائِطٍ بِيَدِيّ أَضْبِطُهَـــا فَلَا تَتَـــأَخَّرُ

أَنَا مَا وَجَدْتُ سِوَى الرّسُولِ مُحَمّدٍ فِي مُسْتَوَى مَـــا يَقْتَضِيهِ الْعَنْبَرُ

وَالدَّوْرَةُ الدَّمَوِيَّـــةُ الكُبرَى بِهَـــــا مِنْ حُبِّهِ مَا لَا يُطِيقُ (الأَبْهَرُ)[1]

هذا النفور من المرأة يقودنا نوعا ما إلى لحظ هذه النزعة الزهدية التي نجدها تبزغ بين الفينة والأخرى بين قصائد " قدر حبه " وهي التي سوف تكون محط دراسة بعنوان:

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 21، 33.

أولا: ملامح زهدية في " قدر حبه ":

وقبل الخوض في عالم زهدية " محمد جربوعة " نخوض بشيء من التفصيل في عالم الزهد بصفة عامة.

1-مفهوم الزهد:

أ- **المفهوم اللغوي:** في الصحاح: الزهد خلاف الرغبة في الشيء، ويقال فلان يتزهد بمعنى يتعبد[1]، وفي القاموس المحيط: الزهد في الدين ضد الرغبة[2]. وفي لسان العرب: " الزهادة في الدنيا لا يقال الزهد إلا في الدين خاصة، والزهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا وفلان يتزهد، أي بمعنى يتعبد[3]. الزهد بمعناه اللغوي الخاص له مدلول ديني بمعنى عدم الرغبة في الدنيا وعدم الحرص عليها.

ب- **المفهوم الاصطلاحي:** ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى التزهيد في الدنيا وتفيد بعدم دوامها والمآل فنائها ودوام الآخرة والترغيب فيها وفي خلود نعيمها، فقال المولى جل جلاله ﴿ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[4]

---

[1] إسماعيل بن محمد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1990، الجزء الثاني، مادة زهد، ص 481.

[2] الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 8، 2005، ج1، مادة زهد، ص.286

[3] ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط4، د ت، ج 3، مادة زهد، 196-197.

[4] النساء: 77.

ويقول تعالى﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾[1]، فإذا أحب الله عبدا أرشده نحو تقصي حقيقة الدنيا وشرف الآخرة، ومن ثم يؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

وكثيرا ما نجد تلك الإيماءات التي تلفت العبد نحو العمل الصالح، وأن الظافرين برضا الله هم :(التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر)، كذلك الفائزات (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات) وكلمة سائحين وسائحات كما يرى " شوقي ضيف " قد تفيد الرحلة أو التزهيد عن الدنيا ومُتعها[2].

أما بالنسبة لمفهومه عند جمهرة علماء المسلمين فقد توضح عند بعضهم كالآتي:

عرفه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة[3]، وجاء تعريف الإمام أحمد بن حنبل للزهد كالآتي: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام، والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص، والثالث: ترك ما يشغل على الله. وهو زهد العارفين[4].

---

[1] الأعلى: 16.

[2] شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط8، د ت، ص 56.

[3] ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل " إياك نعبد وإياك نستعين "، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 7، 2003، ج 2،ص12.

[4] المرجع نفسه، ص14.

أما أبو حامد الغزالي فالزهد عنده: الرغبة عن الدنيا عدولا إلى الآخرة، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيرا عند الزاهد، ويشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه، فإن ترك ما لا يقدر عليه فمحال زهده[1].

وليس المراد من الرغبة عن الدنيا رفض ما فيها، فزهد الإسلام معتدل، فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾[2]، وهو نصيب ينبغي أن لا يصرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم من أزهد البشر على الإطلاق وله تسعة نسوة، وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمان بن عوف والزبير وعثمان– رضي الله عنهم – من الزهاد، مع ما كان لهم من المال، وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء وأغناهم[3].

فعلى الرغم مما ملكه كل هؤلاء من ما يفضي إلى إيثار الدار الدنيا على الدار الآخرة، إلا أنهم كانوا يرون الله في كل شيء، فعاشوا دنياهم بما يرضيه دون أن ينشغلوا

---

[1] أبي حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 1573.

[2] القصص: 77.

[3] ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل " إياك نعبد وإياك نستعين "، ص 15.

عن ما خلقَ من أجله تبارك وتعالى – العبادة –، وجعلوا هذا نقطة انطلاق ونقطة وصول في الآن نفسه، فمنها الخوض في الدنيا بما يرضيه جل جلاله، وإليها الظفر برضاه جل جلاله " يعيشون في الدنيا بقلوب أهل الآخرة، يمشون في الأرض وأعينهم ترنو إلى السماء، يخالطون الخلق، لكن قلوبهم مشدودة إلى الخالق، فلم تغلب عليهم الدنيا لدرجة عدم المبالاة بالحلال والحرام "[1].

فالزهد في مفهومه العام هو بتر حبل الصلة الدنيوي، احتقارا لما يشوب هذه الدنيا مما يلهي ويرغب عن سبب جوهري وجدت من أجله مخلوقات الله، وهو عبادة الله.

2- الزهد والشعر:

أشرنا فيما سبق إلى أن الزهد ظاهرة دينية ترنو إلى عدم التعلق بكل ما هو زائل ليس منه طائل في الدار الآخرة، أول من اتسم به الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام رضوان الله عليهم، ممن زهدوا عن الدنيا وترفعوا عن فضول حلالها خشية القرب من حرامها، ووصف " الحسن البصري " هذه الطائفة فقال: " أدركت من صدور هذه الأمة قوما كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون مولاهم في فكاك[2] رقابهم "[3]، وهناك من زهد في الآخرة إذ باعها

---

[1] خالد خليفة السعد: خطب الشيخ القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ج9،د ت، ص 208.

[2] الفَكاك: بفتح الفاء وكسرها. وفك الرقبة: تخليصها من إسار الرق. أي تخليصهم من إسار الدنيا وشهواتها، أو ما يقربهم من جزاء لا يخشونه.

[3] عمر ابن عمر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط71998، ج 3، ص 136.

بالدنيا واختار لنفسه إسارها وشهواتها على حد قول " الإمام الغزالي "[1]، وهذا الذي تفشى بشتى أنواعه في الأمة الإسلامية شيئا فشيئا.

كان بذلك نشاط حركة الزهد في العصر الأموي نظرا لكثرة الحروب، ونظرا كذلك لظلم حكامهم وولاتهم، ومع الظلم يشعر الناس بضرورة التجائهم إلى الله لينجيهم مما هم فيه وإلى الدين يستمدون منه الصبر وقوة الاحتمال[2]، ولأن الشعر تعبير النفس متأثر بكل ما يؤثر فيها من ظروف، طبعت نفسية الشعراء بهذا الطابع الديني في هذا العصر حيث يرى " شوقي ضيف ": " أن الحياة الدينية طورت الشعر الأموي وأثرت أثرا عميقا في نفوس الشعراء، وأصبح من غير الممكن أن ينظموا شعرا لا تتضح فيه عناصر هذه الحياة، ومن أهم ما كان من ذلك أنهم أصبحوا لا يمدحون أحدا ولا يهجون أحدا إلا وضعوا الصفات الدينية إيجابا وسلبا في مديحهم وهجائهم[3].ثم دعم " شوقي ضيف" رأيه بأبيات " لكثير" يمتدح فيها " عمر عبد العزيز":

وَصَدَّقْتَ بِالفعلِ المَقالِ مَعَ الّذِي ... أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضِيًـا كُـلّ مُسْلِـمِ

وَقَدْ لَبِسَتْ لِبْسَ الهَلُوكِ ثِيَـابُهَـا ... تَرَاءَى لَكَ الدُّنْيَـا بِكَفٍ وَمِعْصَـمِ

وَتُومِضُ أَحْيَـانًـا بِعَيْنٍ مَرِيضَـةٍ ... وَتَبْسُمُ عَنْ مِثْلِ الجُمَـانِ المُنَظّـمِ

---

[1] محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 1571.

[2] محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 1، 1963، ص283.

[3] شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 64.

فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مُشْمَئِزًا كَأَنَّمَـــا سَقَتْكَ مَدُوفًا مِـــنْ سِمَـامٍ وَعَلْقَـــمِ

تَرَكْتَ الذِي يَفْنَا وَإِنْ كَـانَ مُونِفًـــا وَآثَـرْتَ مَـــا يَبْقَى بِـــرَأْيٍ مُصَمِّـمِ

وَأَضْرَرْتَ بِـــالفَانِي وَشَمَّرْتَ للَّذِي أَمَـــامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّرِّ مُـــظْلِمِ[1]

فهو يمتدح في عمر ترفعه عن الدنيا مع توفرها له، وفي زهده عن ملذاتها ومغرياتها الفانية رجاء في ثمرة من ربه باقية، فيمتدح فيه رجاه لرضا ربه ونعيم فردوسها الأعلى.

أما بالنسبة لمرحلة العصر العباسي فتصدرت قوائم الشعر أسماء لشعراء أكثرهم من الأعاجم، وقلتهم من العرب، أفسدتهم البيئة الجديدة – البيئة الفارسية –[2]وجعلتهم يقبلون ويتبعون من العادات والسلوك ما يتنافى وتقاليدهم ومبادئهم، وجعلوا الخلاعة وساما، والفاحشة أشهر من نار على علم، والتحلل الخلقي دينا، والالتفات عن القيم مذهبا[3].

ومن الأمور الطبيعية أن الغلو والتطرف في جانب من جوانب السلوك عند بعض الناس يقابله غلو وتطرف عند الجانب الآخر منهم، إذ من البديهي أن يظهر تيار آخر

---

[1] شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 64.

[2] هذا مجتمع يختلف في تكوينه عن المجتمعات التي ألفنا الحديث عنها في صدر الإسلام وعهد بني أمية، مجتمع ذو حكم عباسي مسند إلى النفوذ الفارسي، مجتمع جديد ذي عادات جديدة بعضها أصيل وبعضها ناشئ متخلق وأفكار جديدة أقلها حسن مقبول وأكثرها سيء مرذول، ينظر، مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 6، 1986، ص171.

[3] المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

على نقيض تيار اللذة وطلب المتعة والإقبال على الحياة، حيث إن الذين أقبلوا في هذا العصر على الزهد وقالوا فيه شعرهم هم بعض أولئك الذين انغمسوا في طلب اللذة المحرمة[1]، وإن منهم " أبا العتاهية " الذي أكثر من شعر الزهد، بحيث يعتبر في هذا الميدان نظيرا " لأبي نواس " في ميدان الخمر، إذ نجده يطرق باب الزهد بدعوته إلى ترك الدنيا وتحقيرها حينا، ويدعو إلى التقى وصلاح الأعمال حينا آخر، وبذكر الموت وملاحقته للخلق، ويرجو الثواب ويخشى العقاب[2]، ومن أمثلة دعوته إلى ترك الدنيا والتصبر عنها والابتعاد عن الشهوات واحتمال المكاره، زهدياته الآتية:

تَصَبَّرْ عنِ الدُّنْيا وَدَعْ كُلَّ تائِـهِ مُطيعِ هَوَى يَهْوِي بِهِ في الْمَهامِهِ

دَعِ النَّاسَ وَالدُّنْيـا فَبَيْنَ مُكالِـبٍ عَلَيْهـا بِـأَنْيـــابٍ وَبَيْنَ مُشـافِـــهِ

وَمَنْ لَمْ يُحاسِبُ نَفْسَهُ في أُمـورِهِ يَقَـــعْ في عَظيمٍ مُشْكِلٍ مُتَشَـابِـهِ

وَما فازَ أَهلَ الفَضْل إلاَّ بِصَبْرِهِم عَـنِ الشَّهَوَاتِ واحِتمـالِ المَكَـارِهِ[3]

ظهر شعر الزهد عند المسلمين بعد أن مهد له شعر المديح النبوي، ذالك الشعر الذي قام على الدفاع عن الإسلام ونصرته والدعوة إليه بنشر مكارم أخلاقه، وكان أول من زهد آن ذاك الصحابة رضوان الله عليهم مقتدين بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام

---

[1] مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، 210.

[2] المرجع نفسه، ص 215.

[3] المرجع نفسه، ص215، 217.

وبحديثه حينما أتاه رجلٌ فقال: يا رسول الله دلني على عمل، إذا عملته، أحبني الله، وأحبني الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ازهد في الدنيا، يحبك الله. وازهد فيما أيدي الناس، يحبوك "[1]، لذلك كان الزهد قد استمد معانيه من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم في عهد الصحابة والخلفاء الراشدين[2]، كما كان للمرحلة الأموية نصيب من هذا الفن لأسباب قد تم ذكرها فيما سبق[3]، ثم نضجت واكتملت مبادئه وأسسه في العصر العباسي، حيث صار سمة واضحة من سمات الحياة الاجتماعية والأدبية، ويعود ذلك إلى كون هذا العصر قد ازدادت فيه موجة المجون واللهو، واستمرار الحروب وازدياد نزول المصائب نظرا لسوء الأحوال السياسية والاجتماعية، كذلك ازدياد الصراعات الفكرية، قد دفع هذا إلى ازدياد العاطفة الدينية في نفوس بعض المؤمنين بقدر ما ازداد عندهم سوء العبث والمجون، مما دفع الشعراء إلى الاتجاه إلى الله لينجيهم مما هم فيه، فاتجهوا إلى وعظ الناس، وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا الزائلة وحثهم على التزود للآخرة[4].

---

[1] محمد بن يزيد القروينى: سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د ب، د ط د ت، ج 2، ص.1373

[2] علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 9، (د ت)، ج 3 ص.100

[3] ينظر محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري،ص 283.

[4] ينظر مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص 210-211.

3-زهد محمد جربوعة في " ديوان قدر حبه " :

هذا فيما يخص بزوغ الحركة الزهدية في مراحلها المتتالية بصفة عامة وفن الزهد بصفة خاصة، هذا الفن الذي أفرزته تلك الظروف الحياتية المختلفة في وقت مضى، لا زال يفرز للظروف عينها، وإن لم تكن كذلك فتصنف ضمنها، والشاعر " محمد جربوعة " ممن طرق باب هذا الفن لكنه لم يلبس لبوس الواعظ الناهي الآمر كما كان يفعل شعراء الزهد في العادة، فشاعرنا يكتفي بالقيام بعملية التقرير التي يوضح من خلالها هول المآل الذي خلصت إليه أمة الهادي المصطفى عليه أزكى الصلوات والتسليم، حيث يقول " محمد جربوعة " معبرا عن حزنه وأساه عن هذا المآل بأسطر نثرية تتقدم بعض قصائده ومثالها: " لو أنه عليه الصلاة والسلام عاد، فبأي وجه سوف نستقبله؟ ومن سيشرح له وهو يمر على (حانة) و(بنوك ربا) و(معاملات رشوة)؟، وما الذي سيقوله عنه إعلامنا العربي إذا صرح بأن قنواتهم (روتانا) و(الأم بي سي) وفضائيات الوطنية الراقصة غير لائقة هل ستعلن ضده حملات التشويه. لماذا أصبحنا نريد على مزاجنا، لا كما أراده الله؟"[1] ثم يقول " محمد جربوعة ":

لَو أن أَحمدَ عادَ مِن تحتِ الثَّرى حُلوَ المَحيَّـا بـاسِمًا مُـتعطِّـرَا

وأَتَـى يَزُورُ المسلمـينَ بِشوْقـهِ يـا عـارنَا..مـاذا نَقول إذا دَرَى

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 49- 50.

مَـــاذا سَنفعلُ؟ كَيْفَ نشرحُ عُذْرنَا وَبِأيّ وجهٍ سوفَ نظْهرُ يا تَرى [1]

فلو كان مسؤولا لرشوه ليخفي ما رآه، لكن من سيرشي هادي الأمة وشفيعها يوم لا ينفع مال ولا بنون، ففي هذا المقام يعود الشاعر وينضح ما عم وطم في ديارنا من الخمور وقد لعن الله في الخمر عشرا كما ذكر " محمد جربوعة " والرشوة، وقد لعن الله الراشي والمرتشي، أم على الظلم والقتل .... فيقول الشاعر في قصيدة بعنوان " الأسود يليق بنا":

جئتُ الـــمدينةَ، كـــالسفيرِ الموفدِ وســألتُ عــن بيت النبيّ محمدِ

فكـــأنه لمــا طرقتُ أجَـــابنِـــي متأدِّبــا جدا.... أشـــار لـمقعـدِ

أصـــلحتُ ثوبي واقتربتُ بـــرهبةٍ –وأنا أسبّح– نحو ضوء الــفرقـدِ

ونـــويتُ أن أحـكي لـــه، لـكنَّني مَا كُنتُ أعْرف ما أقُول لسيّدي

فَـــأنَـــا غَريبٌ من بلادٍ ذِكْرهَـــا سَـــببُ الإلـــهِ بِـــجزْأةِ المتَمردِ

فكـــأنّ أحـــمدَ قـد أحسّ بقلبـــهِ شيئًـــا يُمـــزّقه كنـــار المـــوْقدِ

وكأنّـــهُ نفضَ العبـاءَةَ دامعًـــا ومضى يتمتمُ مطرقـا للمســجدِ

---

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 50.

طَأطأْتُ رأسي ثم قُلتُ:((يليق بي وبــأمتي لونُ الظـــلام الأسودِ))[1]

فالظروف لا تزال مواتية لاستمرار مثل هذا الفن الذي عسى أن يكون حجة من حجج الحفاظ على ما بقي من رمق يكون هو الآخر حجة لِنَظَرِ الرحيم إلينا، ليهبنا من رحمة رضاه وغفرانه.

أوردنا سابقا تعريفات عديدة للزهد صبت في مجملها في مصب واحد، وهو الرغبة عن الدنيا والرغبة في الآخرة، والرغبة عن الدنيا لا تكون برفضها كليا، فعلى المؤمن أن يأخذ نصيبه من الدنيا دون أن يصرفه ذلك النصيب عن الآخرة ونعيمها الخالد. " ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالعدول إلى شيء هو أحب منه " على حد قول " الإمام الغزالي"[2]، فإن كل معطيات القول تتوفر بين بعض قصائد " قدر حبه " وتأكد لنا فرضيتنا المسبقة، وهي الحكم باللمحة الزهدية للشاعر " محمد جربوعة " من خلال بعض أبيات هذا الديوان، ففي الأبيات التي سيأتي ذكرها المحبوب حاضر والرغبة عنه حاضرة أيضا والمرغوب فيه حاضر بالتأكيد هو حبيبنا وحبيب المولى عز وجل، والذي زهد بحبه عن حب المحبوبة.

فيقول الشاعر هنا في قصيدة بعنوان " بانت سعاد ":

قُلْتُ بِينِي يَا سُعادُ الآن بِينِـي طَـــارَ قلبِي كهزارٍ من يَمينَـــي

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 28.

[2] محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 1571.

كنتِ قلبَ القلبِ منِّي..وَحَيَـاتِي —إنْ يَكن للقلبِ قلبٌ—، وجُنُـــونِي

أشْــهَدُ الآن... ولا أُنكِرُ أَنِّـــي كُنْتُ في عُلْبَـــةِ منــعِ الأكسجينِ

كَانَ في السجدةِ قحطٌ مَوْسِمِـــيٌّ وشُقُــوقٌ ظامئـــاتٌ فـــي جبينِـي

كان في الخَطوِ اضطرابٌ جاهليٌّ وابتســـامـــاتِـي بـــلا أي يقيـنِ[1]

وكأن الشاعر في هذه الأبيات يعارض قصيدة " البردة " للشاعر المخضرم " كعب بن زهير "، وهذا أمر سيصادفنا مجددا في " قدر حبه " ، أما على ما بينهما من فرق فيتموضع في حالة كل من الشاعرين بين طالب ومطلوب، فالأول طالب لسعاد غير راض ببينها، شاعر بالأسى والحزن والعذاب لفراقها، يبتدئ قصيدته بالنسيب حيالها، ثم نجد الشاعر " محمد جربوعة " مطلوب من قبل سعاد، راغب في بينها، يحصر كل أحاسيسه في قربها أنه :((كان في علبة منع الأكسجين)) إذن ((بيني يا سعاد الآن بيني)) فهو لا يأبه لبينها، غير راض عن حاله في وصالها((كان في السجدة قحط موسمي ، وشقوق ظامئات في جبيني))، ثم يعقب الشاعر على هذه الحال، لما مال ركبه بالعشق لليمين فيقول:

ووجدتُ النورَ... آهٍ لَـــوْ تَـرَينِي إذْ رأيتُ النورَ فـاخْضرّت جُفُونِي

قلت: يا طه ازرقاقُ البحر يُغْـوِي مُد لِي مينـــاءَ ضوءٍ لسفينِـــي

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص165–166.

قلتُ.. يا أحْـــلى القنـــاديلَ بِعمـرِي يا جميلَ الضوءِ في عمرِي ودينِي

يَعْلَمُ اللهُ.. وكـــلّ النـــــاس تـــدري أنّنـــي كنتُ قيـــل اليـــاسميـــنِ[1]

إذ توجه الشاعر بحبه للنبي عليه الصلاة والسلام، يرجو منه الهداية والرشاد والنجاة مما تقدمه هذه الدنيا من مغريات تنقاد لها الأبصار مغمضة لكن عند "جربوعة " سرعان ما تحدث تلك الصعقة التي ترد للبصر بصيرته ((قلت: يا طه ازرقاق البحر يغوي، مد لي ميناء ضوء لسفيني))، يعبر له عن ما عم بقلبه من ندم لما كان يضطرب بحب المحبوبة ((يعلم الله وكل الناس تدري، أني كنت قتيل الياسمين)).

ثم يخاطب الشاعر النبي عليه الصلاة والسلام، مواسيا نفسه، ملتمسا لها بعض العذر لوقوعه في هذا الهودج الجاهلي كما وصف، فهو شاعر، مرهف التكوين، مفتون العيون، لكن بالرغم من كل هذا إلا أنه أعرض عنه بهدي حبيبه عليه الصلاة والسلام فيقول:

وأنَـــا الشَّاعرُ يا طهَ... وقَلبِـــي فـــي مهبِّ الريح مفتون الـــعيـــونِ

كـــل قلبٍ في ممرِّ الريحِ يُهـــدي لـــعبورِ الريـــحِ هـــزّاتَ غصـــونِ

ولـــغصنِ القلبِ في جنبِي اهتزازٌ كـــلمـــا قـــتيـــل سعـــادٌ يَـــعْترينِي

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 167-166.

وســـــعـــادٌ هـودجٌ راحَ بَـــعِيـــــدًا بـــحداءٍ ضَـــائعِ الصـــوتِ حـــزيـنِ

وَأَنَـــــا في آخرِ الأمـــرِ ابن حـــوا مُرهفُ التكوينِ.. مِـــن مـاءٍ وطيـنِ[1]

ويستمر الشاعر في التماس العذر لنفسه تارة، والتعقيب على فعله الذي يبدوا الشاعر غير راض عنه مدركا مدى انعدام صوابه من ناحية دينه، لذلك نجده دائما موضحا موقفه من هذه الأمور بالرغبة عنها، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، واضع أسس هذا الدين، ومن خلال ما تم ذكره تتراءى لنا اللمحة الزهدية للشاعر الذي يقول:

أدْري بـــأنِي شَـــاعِرٌ موهوبُ قدَرِي الهَوى.. في جبهتِي مكتوبُ

مهما يطولُ العمرُ أبقَى هاربَا فـــدمِي لألف صبيـــةٍ مَطلـوبُ

والقلبُ يرغبُ دائمًـا لا ينتَهِي وجميعُ ممنـــوع لـــــه مرغـــوبٌ[2]

ثم يتضح موقف الشاعر من المرأة، بالأحرى تتضح زهدية " جربوعة " وذلك في توبته عنها إلى النبي عليه الصلاة والسلام فيقول:

لكنّني في كـلّ ليلـــة جُمْعـــةِ أدَعُ القصيـــدة جـــانبـــا وأتـــوبُ

وأمـــدُّ كفِّي نحْو (طيبةَ) ذائِبـا فهُنَاكَ حـــــارقُ أضْلعِي المحبـوبُ

---

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 167-168.

[2] المصدر نفسه، ص107-108.

وأبيتُ أخْتصرُ المسَـافةَ نحـوهُ والدمـــــع فـوقَ وِســـادتِي مسْكوبُ

روحِي حمامةُ قبةٍ طارتْ نحوهُ لا صبـــرَ عندي مـــا أنـــا أيـــوبُ[1]

يتوب الشاعر عن المرأة ويوجه اشتياقه للنبي عليه الصلاة والسلام، معترفا له بالندم والحسرة على ما يصدر عن نفسه من سلوك منافٍ لما أحبه منا، لذلك نجده يلجأ إلى الروحانية الدينية، يستمد منها القوة والعزيمة يقهر بهما ما يجعله يقبل إليها، تبعث في نفسه سكونا يطير بعده إلى الذي في حبه معنى الحياة.

أشرنا سابقا إلى أن " محمد جربوعة " اتسم في شعره بمبدإ المعارضة، خاصة للشاعر الفحل " كعب بن زهير "، حيث شكل نسيب بردته التي ألقاها على مسامع النبي الشريفة استفزازا كبير للشاعر " محمد جربوعة "، فالمسامع الشريفة تستقبل صوتك وأنت تهذي ببيان سعاد؟، فكانت قصيدة " برقية إلى كعب بن زهير " من أجمل ما جادت به قريحة الشاعر في مجال الروحانية الدينية عموما والزهد خصوصا، والتي مطلعها:

بانتْ سعادُكَ والتقيتَ بأحمدَ ماذا خَسرْتَ بهجْرِهَا يا سيّدي؟[2]

وقبل الخوض في الملامح الزهدية في هذه القصيدة دعونا نحيط بعض الإحاطة بمروي " البردة"حتى نستوعب السياق الذي كتبت فيه برقية "محمد جربوعة ".

---

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص108.

[2] المصدر نفسه، ص 5.

نهى " كعب بن زهير" أخاه بجير عن الإسلام وقال أبيات هجا فيها النبي عليه الصلاة والسلام، فلما بلغ ذلك الرسول صلوات الله عليه توعده بإرسال أخيه بجير، وقد كان قد أوعد رجالا بمكة هجوه من قبل فقتلهم، ولما أدرك كعب شدة هوله فر إلى الرسول يطلب العفو والصفح، وقد أُخبر أنه عليه الصلاة والسلام لا يقتل من أتاه تائبا، فأتى إليه وقد كان متنكرا فلما أنهى عليه الصلاة والسلام صلاته وضع كعب يده في يده عليه الصلاة والسلام ثم قال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد أتى مستأمنا تائبا أفتؤمنه فآتيك به، قال عليه الصلاة والسلام: هو آمن، فكشف كعب عن وجهه وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنا كعب بن زهير، فأمنه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، وأنشد كعب قصيدته المعروفة بالبردة والتي مطلعها:

بانت سعـــادُ فقلبي اليوم متبولُ مـــــتيَّم إِثرهـــا لـــم يُفْدَ مكبـــولُ [2]

ثم يقول فيه بعد تغزله، إذ يذكر شدة خوفه ووجله:

أنـــبئتُ أن رســـولَ الله أوعدنـــي والـــعفو عند رســـول الله مـــأمولُ

مهلاً هداكَ الذي أعطاك نـــافلةَ الـ قـــرآنِ فيـــه مـــواعيظُ وتـــفصيلُ

---

[1] ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص 7.

[2] كعب ابن زهير: الديوان، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان،ط 1، 2008، ص 123.

لا تـــــأخذني بـــأقوالِ الوشـــــاةِ فلم أذنَبْ ولـــو كثرت فيـــيَّ الأقـــاويل [1]

فعفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم مثلما أوعده وتجاوز عنه ووهب له بردته، لذلك سميت هذه القصيد بالبردة.

وعلى عادة شعراء الجاهلية بدأ كعب بن زهير بردته بنسيب حبيبته، وبعدها انتقل إلى مدحه عليه الصلاة والسلام وبحضوره، على مسمعه المبارك، وهذا لأمرٌ عجاب بالنسبة لـ " محمد جربوعة " الذي بدا من خلال قصيدته " برقية إلى كعب بن زهير" مستغربا لكل هذا النحيب على تلك التي بانت، علما أن من عفا وصفح وأكرم واستأمن، إذ بعد السوء أحسن ثم وصل، هو أكرم الأكرمين خير المرسلين عليه أزكى الصلوات والتسليم، وتبدى عُجَاب الشاعر هذا منذ بداية قصيدة " برقية إلى كعب بن زهير" فيقول الشاعر متعجبا:

بانَتْ سعادُكَ والتقيتَ بـــأحمدِ ماذا خسرْتَ بِهجْرِها يا سيّدي؟

قد كان قلبُك ماسةً في عِقدها يبقى يُسبِّح صدرَهـــا إن تَرقدِ

ويظلُّ ينفخُ آهَـــهُ في جِيدِهـــا لم يحترقْ فيهـــا ولم يتجمَّـــدِ

متعلّقـــا بـــــالـوهمِ يخدعُ نفسهُ بين المنَـــافِي كـــالشَّرِيدِ المُبعدِ

[1] كعب بن زهير: الديوان، ص 133.

والآنَ قلبكَ يـــا أخـــي متلألئٌ بـــــمحمَّدٍ، متعلِّـــقٌ بـــالمسجدِ[1]

حيث لا يرى الشاعر أي داع للحزن على من بان، ما دام من وُصل هو رسول الإسلام عليه أزكى الصلوات والتسليم.

فنفس النبي رضِيَّة صفية، محتوية كل من صبا إليها بصدق النية، ومن أجل هذا أرسله إلاه البرية، ومن أجل ذلك ترنو إلى الظفر بحبه كل البرية، فيقول محمد جربوعة مؤكدا لمن وجه له برقيته هذه، مدى سماحة من هو في حضرته:

فاقرأ عليهِ.. فسوف يرضى قلبهُ قلبُ النبيّ كفُلّة الفجر الندي[2]

والتقرب للحبيب جميل القلب قُربة يُقَابَلُ منه بأضعافها، فالنبي عليه أزكى الصلوات والتسليم لم يكتف بالسماحة له والرضا عنه ببسيط ما قال، بل إضافة إلى ذلك، وهبه تلك البردة التي عبَّقها أريجه المستطاب، فيقول الشاعر:

حطتْ على كتفيكَ مثل حمامةٍ أسنى البرودِ ومن سنا أسنى يدِ

مـــاذا تريدُ وكـــاهلاكَ منـــارةٌ وأمـــام عينِك وجهُـــهُ كـــالفرقدِ؟

بالله بُسْ ذاك الجبينَ،وقل لـــه إنـــي أحسّ بأضلعي كـــالموقدِ[3]

---

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 5-6.

[2] المصدر نفسه، ص7.

[3] المصدر نفسه، ص7-8.

فالشاعر يبدو في هذا المقطع في حالةِ حسد للشاعر والصحابي الجليل " كعب بن زهير" لما تسنى له ما لم يتسنى لغيره من الشعراء، فعفو النبي وصحبته وإنصاته لما ينشد ووهبه بردته المباركة كل هذا والشاعر محمد جربوعة يهذي بتقبيل نعله عليه الصلاة والسلام، فيقول:

أهـــواهُ أهجرُ –كـــيْ أقبّـــل نعلهُ– ألفي سعـــــاد فـــاتنـــاتٍ، خُـــرّد[1]

أشرنا سابقا إلى ذلك الوميض الزهدي الذي يُنير بعض قصائد " قدر حبه " والذي من شأنه أن يضفي بعض الدلالات المقصودة من صاحب هذا الإبداع، كما أشرنا أيضا إلى أن الشاعر من بين جل متاع الدنيا، اختار أهمه ألا وهو المرأة، التي بالرغبة عنها سيتم تجسيد تمظهر الفكرة الزهدية الخاصة به، ومحمد جربوعة لما تغنى بالرغبة عن المرأة، لم تكن أيا كان هذه المرأة، إذ ذكرها على اتصال بحالة جاهلية لذلك قال (قلت بيني يا سعاد الآن بيني)، وذكر وصالها بالسلوك الجاهلي فماذا قال؟:(كان في الخطو اضطراب جاهلي)والمعروف أن الجاهلية هي مرحلة ما قبل الإسلام، إذن مرحلة الضلالة والضياع والظمأ لتلك المبادئ الإسلامية المهذِّبة للسلوك الإنساني. فنوع الوصال الذي كان بين الشاعر المخضرم كعب ابن زهير وسعاد غير مرغوب بتاتا في دين محمد الذي جلس الشاعر ينشده فراقها، لذلك نجد الشاعر محمد جربوعة في قصائده ينفر من سعاد،

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 8.

ليس بوصفها امرأة لكن بوصف العلاقة التي تربطها بالطرف الآخر تنافي أخلاقيات الدين الإسلامي.

وتجسيدا لمبدأ العفة في إسلامنا النزيه نجد الشاعر في مواضع أخرى من ديوانه "الساعر"، يتغنى بالرغبة في وصال المرأة، لكن هذا لا يخول له أن يحيد على ضوابط ديننا المبجل، وهذه المرة ليست كالتي سبقتها، فقد أنشدت بحالة أكدت اعتبارها للمبدأ الديني بامتياز، فكان مبدأ أصحاب الغزل العفيف محل إعجاب الشاعر، حيث يقول محمد جربوعة:

يا حيَّ (عذرة).. قبلة العشاق ومعلمي فـــن الجنـــون الــراقي

أسياد(موت الحب)منذ(بثينة) مــن كل مجروح الحشــا مشتاق

أنتم أئمتنا الكبـــار، وقــولكم فينــا(وبعـــد الشرع) كـــالميثـــاق

أنا قد أتيت لحيكم متوجعـــا هـــل مـــن طبيب مـــاهر أو راق[1]

يعترف محمد جربوعة بانتهاجه نهج شعراء (عذرة)، تلك القبيلة التي نسب إليها هذا النوع العفيف من الشعر لكثرة تغني شعرائها به ونظمه، وهي إحدى قبائل قضاعة التي كانت تنزل في واد القرى شمالي الحجاز، والغزل العذري غزل نقي طاهر، إذ أُرجع سبب

[1] محمد جربوعة: ديوان الساعر، البدر الساطع للطباعة والنشر، د ب، الطبعة الأولى، 2014، ص182، 183.

طهره إلى الإسلام الذي طهر النفوس وهذب السلوك[1]،لذلك استقينا هذه الأبيات تأييدا للفكرة سالفة الذكر، هو أن الشاعر محمد جربوعة لم يرغب في هجر المرأة في أبياته كونها هي، إنما هجر نوع العلاقة التي تجمع بالمرأة إذا كانت تتصادم وأخلاقيات الدين الإسلامي، ويضرب لنا الشاعر مثلا بشعراء عذرة هؤلاء القوم الذين لم يضربوا عفة دينهم عرض الحائط، وكما وُصِفوا" هم قوم إذا عشقوا ماتوا "[2].

بهذا الشكل تتبلور زهدية محمد جربوعة، فالرغبة في أي شيء لا يعني السماح للنفس بالمضي إليها، فليس كل ما يرغب يؤتى أو يتسنى للمؤمن الضفر به، ويخول ذلك فقط لمَّا تعد أخلاقيات ديننا المبجل.

ثانيا: اللغة الصوفية في ديوان " قدرٌ حبُّهُ ":

استمرارا وتركيزا على علاقة الحب التي أبداها محمد جربوعة في " قدر حبه " للحبيب محمد عليه أزكى الصلوات والتسليم، وانبهارا بأخباره وإجلالا لخصاله، وعشقا منْصبًا له عليه الصلاة والسلام، طفق محمد جربوعة يتوسل المنان أن تنقاد له الأفكار والجمل في قوله في النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فيفلح ويفرح لذلك أحيانا، كما يعترف بعجزه أحيانا أخرى. واستمرارا من الشاعر بل إسرارا على خوضه في بحار حب من سبانا بخلقه الكريم، نلحظ لجوء محمد جربوعة بعد كل محاولاته ومكابداته إلى جو الصوفية يستقي منه بعض المُعينات، عسى أن تكون خيرَ من يأخذ بيده إلى ما يقابل ما يكنه ذلك الفؤاد الذييفيض حبا وعشقا وهياما لحبيب الله، حبيب الورى، ولأن موضوع علم

[1] ينظر شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص 359.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

التصوف هو" الأخلاق المحمدية من حيث التخلق بها "[1]نجد ذلك التناغم بين الموضوعين؛ أي " قدر حبه " وموضوع علم التصوف، وذلك التناغم بين الاثنين سوف يكون محل دراسة بعنوان اللغةالصوفية في " قدر حبه ".

لكن قبل هذا نحيط بعض الإحاطة بمقول التصوف، وكيف تمظهر في المدونة قيد الدراسة؟

1- مفهوم التصوف:

لم يتفق العلماء على مفهوم ثابت موحد لظاهرة التصوف، وإنما حدده كلٌ منهم حسب ما روي له، أو حسب الإحالة الدلالية للفظة، فنذكر في الآتي بعض ما عرِّف به التصوف:

الصوفي نسبة إلى " صوفه، وهو اسم رجل كان انفرد بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام، واسمه الغوث بن مر، فانتسب الصوفية إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله"[2]. وقيل إنهم سمو صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعز بارتفاع هِمَمِهِمْ إليه، وإقبالهم عليه[3].

كما قيل " كان في الأصل صفوى فاستثقل ذلك فقيل: صوفى، إذ سُئِل أبو حسن القناد رحمه الله عن معنى الصوفي: فقال مأخوذ من الصفاء "[4].

---

[1]عبده غالب أحمد عيسى: مفهوم التصوف، دار الجيل، بيروت، لبنان،ط 1،1992، ص 25.

[2]زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د ط 2012، ص 54.

[3]إحسان إلهي ظهير: التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، الطبعة الأولى، لاهور، باكستان، 1986، ص20.

[4]لسراج الطوسي: اللمع، تحقيق، عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، دط، 1960، مصر، ص 46.

حيث أتى هذا الرأي مناقضا للرأي القائل بأن الصوفية سمو كذلك لارتدائهم ملابس الصوف أو لبس الملابس الخشنة، كون ذلك أقرب إلى الخمول والتواضع والزهد، كذلك كون الأنبياء والصالحين كانوا يؤثرون لبس الصوف[1]، حيث يقول ابن الجوزي مناقضا لهذا:

لَيْسَ التصوفُ لُبْسَ الصُّوفِ تَرْقَعُهُ ولا بكـــاؤُكَ إِنْ غَنَّى المُغَنُّونَـــا

وَلاَ رَقْـــصٌ ولا طَـــرَبٌ ولاَ صَرِيخٌ كـــــأنْ قَـــدْ صِـــرْت مَجْنُونَا

بَـــلِ التَّصَوّفُ أنْ تَـــصْفُو بِلاَ كَدَرٍ وتَتْبَـــعَ القُـــرْآنَ والعِلـــمَ والدِّيـــنَـا

وأَن تُـــرَى خَـــاشِعًا لله مُـكْتَئِبَـــا عَلَى ذُنُوبِكَ طولَ الدَّهْرِ مَحْزونَـــا[2]

أي أنهم صوفية لصفاء أسرارهم، وشرح صدورهم، وضياء قلوبهم، ومن أجل هذا صحت معارفهم بالله، فلم يرجعوا إلى الأسباب ثقة بالله عز وجل، وتوكلا عليه، ورضا بقضائه[3].

ففي ملاحظة التعريفات التي وردت للتصوف أو المشتقات التي أخذت منها هته التعريفات، نلاحظ الاختلاف الواضح في قشورها، لكننا نجد لبابها واحد، إذ يفيد حسب "حسن الشرقاوي" بأن: " التصوف هو الاسترسال مع الله تعالى، فهو عيش مع الله ولله وفي الله وبالله، وخوفا منه ورجاء فيه، وهو سلب لأوصاف النفس المذمومة، وتحلية لها بالأوصاف المحمودة، وهو بعد كل ذلك تجريد للتوحيد، فلا يشوب القلب خاطر شيطاني

---

[1] زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص 57.

[2] عبده غالب أحمد عيسى: مفهوم التصوف، ص 10.

[3] إحسان إلهي ظهير: التصوف المنشأ والمصادر، ص 23.

فيفسده، ولا هوى فيظلمه وهو كشف عن الخواطر، وبحث عن كل ما يخطر على سر الصوفي، فيسترسل مع ما هو حق ويتجنب ما هو باطل"[1].

هذه الوسوسة الروحية كما سماها عليها " زكي مبارك " لا يستوعبها العقل الحاضر وذلك لأنه اندفع في التيارات الواقعية، والتصوف لا ينمو إلا في البيئات التي خفت أثقالها في عالم العيش، واستطاعت أن تغمض الجفون ولو لحظات لتنظر ما يجري في دنيا الوجدان[2]، حيث يرى " زكي مبارك " أَن " السياسة الصوفية أضرت من وجه وأحسنت من وجوه، أضرت حين قصرت الشخصية الخلقية على الحياة الفردية، وقضت بأن يصم الرجل أذنيه في أكثر الأحيان عما يجري في المجتمع...، وأحسنت حين ربطت مصير الفرد بمجاهدة الأهواء....، وراضته على احتقار المغانم الدنيوية، والإيمان بأن المغْنَم الحق هو الاتصال بالمبدع الأول الذي وهب الروح لكل موجود "[3].

فهو عالم غير هذه العوالم، يرنو صاحبه إلى التطهير الروحي ونزع ثوب المادية، هذا الثوب الذي من شأنه أن يتوجه بالنفس إلى الأخذ بالسمة النفعية، ولأن مبتغى الصوفي هو الإفعام بالروحانية الإيمانية الدينية، والتي تستدعي ضعف المخلوق لخالقه، هذا الذي يتنافى والسمة النفعية التي تستوجب القوة للظفر بأيّ مادي موجود على وجه الأرض.

إذن الضعف هو الحجر الأساس للمتدين المتصوف، هذا الضعف الذي نلقى روحه تحل في جسد المتصوف، ومن ثم تُبعث عبر أقواله وهو يعبر عن أحواله، لذلك نجده ذلك الحزين الباكي المتحرق الذائب المحموم الهاذي المتألم الهائم في الخيال المتشوق العاشق ...إلى غير ذلك من الألفاظ المحيلة إلى مقام الضعف، الذي هو أبرز ميزة

---

[1] حسن الشرقاوي: معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 1987، ص 78.

[2] زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص 498.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

لنصوص الصوفية وذلك لماذا؟ للزهد في الوصل، والذي عدّه زكي مبارك تصوفا؛ لأنه من دلائل الصدق وقوة العلاقة الروحية، لذلك استشهد للتصوف في الحب مثلا بقول جميل:

وَإِنِّـي لأَرْضَى مِـنْ بُثَيْنَةٍ بِـالَّذِي لَوَ ابْصَرَهُ الوَاشِي لَقَرَّتْ بَلاَبِلَهُ

بَـلاَ، وَبِـأَنْ لاَ أَسْتَطِيعُ وَبِالمُنَى وَبِالأَمَلِ المَرْجُوِّ قَدْ خَـابَ آمِلَهُ

وَبِالنَّظْرَةِ العَجْلَى وَبِـالحُولِ تَنْقَضِي أَوَاخِـرَهُ لاَ نَـلْتَقِي وَأَوَائِـلَـهُ[1]

2- الشعر والتصوف:

من المعلوم أن الشعر العربي قد اتسم خلال مسيرته بعدد من الظواهر الفنية، والتي كان لها الفضل في إثراء مضامينه وتجديدها، والتصوف من أهم هذه الظواهر، والذي أرجع سبب الاهتمام به لما جُمِعَ بينه وبين الشعر من علاقات وروابط جدية حمَّلت كل منهما مزية كل منهما على الآخر[2].

جرت الألفاظ الصوفية في الأغلب حول معاني وجدانية وروحية ونفسية واجتماعية،وهذا الذي جعل بينها وبين الحيات الأدبية والشعر بالضبط وشائج قربى[3]،فالشعر له ارتباط بالتصوف، إذ إنّ أداة الإدراك عند الشاعر هي نفسها أداة الإدراك عند الصوفي، وكذلك يستقيان منالمعين نفسه، ويستخدمان الوسيلة نفسها، فيستقيان من الباطن، وتغاير لغتهما لغة الناس كافة، هي لغة الخصوص من مجاز

---

[1] زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص 29.

[2] بولعشار مرسي: الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة –ابن الفارض–نموذجا، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتراه في الأدب العربي، إشراف الدكتور أحمد مسعود، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والفنون، جامعة وهران، 2015، ص11.

[3] زكي مبارك: المرجع السابق، ص 71.

ورمز، والصوفي يلجأ إلى هذه اللغة إما لأن لغة العموم لا تفي بالتعبير عن معانيهم ومواجيدهم، وإما ظنا باختلاف ما يقولون على ما يقول سواهم[1]،وكما يكون تعويلهم (المتصوفة) على الذوق والكشف لا على العقل والمنطق، كذلك الشاعر لا يكون تعويله على الفلسفة والمنطق، وفي هذا يقول البحتري قديما:

كَلَّفْتُمُونُـــا حُـــدُودَ مَنْـــطِقِكُمْ و الشَّعْر يُغْنِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهُ[2]

يتشابه الشاعر مع الصوفي في الوسيلة ويتحد معه في الهدف، فكلاهما لا يعول على المنطق، ويضع العقل بعد القلب في الترتيب، وكلاهما يهدف إلى تكوين رؤية للعالم"ويمثل الخيال والحدس ركيزة أساسية في التجربة الصوفية والتجربة الشعرية بالضرورة، كما يدخل الحلم مكونا مهما من مكونات كل منهما، وفي التعبير تلجأ كل من التجربتين للرمز والإيحاء، ولذلك كان الجمع بين التجربتين أمرا متوقعا، في الغرب وفي الشرق على السواء، ومن شعراء الإسلام المتصوفين طائفة من أعظم الشعراء منهم: جلال الدين الرومي، وابن عربي، وابن الفارض "[3].

فالرؤية الصوفية رؤية واسعة رحبة والتعبير عاجز ووسيلته اللغة المحدودة، لذا يلجأ الصوفي للرمز وللغة الخاصة، ويقول النفري في هذا:

" كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة "[4]

وما أردناه بنفحات الصوفية ليست مقاماتهم أو أحوالهم أو غير ذلك من سمات المتصوفة، وإنما أَحَالَنَا إليها تقاطعنا أثناء اطلاعنا على مضمون " قدر حبه " وأساليب

---

[1] إبراهيم محمد منصور: الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأمين، مصر، ط 1،دت، ص 24 .

[2] المرجع نفسه، ص 25.

[3] إبراهيم محمد منصور: الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، ص 26.

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

هذه النزعة، ألفاضها و تعابيرها، في القول في المحبة والشوق، ولأن موضوعها هو حب الرسول عليه أزكى الصلوات والتسليم سيد الروحانيات، لا يفوت الباحث في الشعر وفحواه أن يرجع تلكالأساليب إلى الصوفية، خاصة وأنها تهتمبالروحانيات والوجدانيات، والتي يريد شاعرنا الكشف عنها من خلال " قدر حبه " وذلك بالاستمالة إلى بعض أساليب الصوفية.

3-ملامح اللغة الصوفية في " ديوان قدر حبه ":

سنشرع الآن في استخراج الأبيات الشعرية التي لمسنا فيها نفح الصوفية، ونبتدئها بالأبيات الآتية

أ- في الكتم والستر:

هاتان الخصّيصَتَانِ كانتا أول ما أحالنا إلى ملاحظة تلك النفحة الصوفية في ديوان " قدر حبه "، وحدهما هو كتمان المحب ما أكنه من الجوى، إما غيرة على عرض المحبوب،أو تَهَيُّب المحب من عدم قدرته على إلحاق محبوبه بما يستحقه من صفات التعظيم[1]، إذ يقول فيه أحدهم:

يَقُولُـــونَ مَجْنُونٌ بِسَمْرَا مُـوَلَّع أَلاَ حَبَّـــذَا جنٌّ بِـــهَا وَوُلُـــوعُ

وَكَيْفَ أُطِيعُ اَلْعَاذِلاَتَ وَحُبُّـــهَا يُـــؤَرِّقُنِي وَالعَـــاذِلاَتُ هَـــجُوعُ

وَإِنِّي لَأُخْفِي حُبَّ سَمْرَاءَ عَنْهُمُو وَيَـــعْلَمُ قَلْبِـــي أَنَّـــهُ سَيَشِيـــعُ[2]

---

[1] محمود محمود الغراب: الحب والمحبة الإلهية، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، سوريا، ط 2،1992، ص104.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

كما يقول " محمد جربوعة "متهيبا من عدم قدرته على إلحاق الوصف المناسب للحبيب النبي عليه أزكى الصلوات والسلام:

حبيبي الذي قبره في المدينة

مَاذَا تُرِيدُ؟

قَصِيدَةُ حُبٍ؟

أَنَا آسِفْ ...

لَمْ أَجِدْ فِي القَوَافِي فُصُوصَ عَقِيقٍ

لِـ (عِقْدٍ فَرِيدٍ)[1]

كذلك يقول " محمد جربوعة " في حب الرسول عليه الصلاة والسلام:

عِندي بطيبةَ حبٌّ.. ما أنا ناسِ فَـقَـطْ أُغَـافِلُ كَيْ آتِيـهِ حُرَّاسِي

وَأَنْتِ عندكِ مثلي فِـي مَدينتهِ حـبٌّ وراءَ مَـتَـارِيـس وأكـيـاسِ

قَلْبِي يـذُوبُ وَلَا أُخْفِيكِ سَيِّدَتِي أَبِيـتُ أَضْرِبُ أَخْمَـاسًا بِـأَسْدَاسِ[2](...)

أَنَـا أُوَاسِي اشْتِيَاقِي، الكُلُّ يَفْعَلُـهَا وَاسِي اشْتِيَاقَكِ،لاَ..لاَ تَخْجَلِي..وَاسِي

وَلاَ تَلُومِي ..فَـكُلُّ النَّاس تعشقـهُ والكُـلُّ مَحْرُوقُ أَنْفَـاسٍ كَـأَنْفَـاسِي

وَأَصْعَبُ الشَّوْق مَا يَكْوِي، وَنَكْتُمُهُ وَمَـا يُـعَبِّئُنَا نَـارًا إِلَـى الـرَّاسِ[3]

---

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 169.

[2] المصدر نفسه، ص 53-54.

[3] المصدر نفسه، ص 55-56.

الكتمان والتستر في قول الشاعر (أصعب الشوق ما يكوي ونكتمه)، والذي يفيد بعدم قدرة الشاعر على الوفاء في البوح بما تكنه تلك العضلة التي تضطرم حبا وشوقا للحبيب النبي عليه أزكى الصلوات والتسليم، إذ يرتئي المحب الأفضلية في كتمان ذلك الحب والشوق، لأَنَّ البوح به إساءة حسبهم، هذا الكتمان الذي كانت نتيجته حسب قول الشاعر(قلبي يذوب، الكل محروق أنفاس، ما يعبئنا نارا إلى الراس، أصعب الشوق ما يكوي) هته الأساليب الصوفية التي استأنس بها الشاعر في صياغة قصيدته التي عنْوَنَها بـ " قلوب خضراء محبوسة عن حبيبها " وهو يعبر عن حبه وشوقه لمن هو بطيبة عليه أزكى الصلوات والتسليم، في وقت أصبح إرواء ظمإ المشتاق لحبيب البرية بتأشيرة سفر ومن من لم يتسن له ذلك يبقي يتحرق شوقا لمحبوبه، لذلك يقول " محمد جربوعة " :

وَمَا يُغَافِلُ – كَيْ يَأْتِي أَحِبَّتَهُ – حواجز الـظلم، أو تفتيش عساس(...)

وَمَـــا نُقَبِّلُ كَفًّـــا ثُـــمَّ نَنْفُخُـــهُ نَـــحْوَ المَدِينَةِ مِـــنْ بُوسٍ وَإِحْسَاسِ

وَمَا نَبِيتُ عَلَى الشِبَّاكِ نُرْسِلُـــهُ مَـــعَ النُّجُومِ بِـرَغْمِ القَهْـــرِ وَاليَـاسِ

وَلاَ تَخَـــافِـي عَلَيْنَا اللهَ يَحْرُسُنَـــا وَمَـا عَلَى عَاشِقِي اَلْمَكِّيّ مِنْ بَـــاسِ[1]

ب – في البكاء والدمع:

من بين سمات المتصوفة البكاء وذرف الدموع وأمر العينين بذلك، والمحب الصادق عندهم من جفت عيناه من نار الحب وعظم حرارتها، والبكاء هو حالة شوقية للقاء المحبوب والظفر في المطلوب[2]، إذ يقال في هذا:

يَـــا مَوقِدَ النَّـــار يُزْكِيهَا وَيُخْمِدُهَا بَـــرُدَ الشِّـــتَاءُ بِـــأَرْيَاحٍ وَأَمْطَـــارِ

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 56-57.

[2] محمود محمود الغراب: الحب والمحبة الإلهية، ص 101.

قُمْ فَاصْطَلِي النَّارَ مَـنْ قَلْبِي مُضْرَّمَة بِـــالشَّـــوْقِ تَغْنَ بِهَا يَا مَـــوْقِدَ النَّارِ

وَيَـــا أَخَـــا الذّوْدِ قَدْ طَالَ الظَّمَاءُ بِهَا لَـــمْ تَدْرِ مَا الرَّأْيُ فِي جَدْبٍ وإقتـارِ

رُدَّ الظِّبَـــاءَ عَلَـــــى عَيْنِي وَمَحْجَرُهَا تَـــرْوِي الظِّبَـــاءَ بِـــدَمْعٍ مُسْبَلٍ جَارِ

يَـا مَزْمَعَ البَيْنِ عَـــنْ جِدِّ الرَّحِيلِ فَلاَ كَـــانَ الـرَّحِيـلُ فَـإِنِّي غَيْرَ صَبَّـــار [1]

ولأن الدموع دليل صدق وحصول اشتياق، نجد المحبين يتخذونها مسلكا بل منهجا يحقق للمشتاق رغبته وفوزه بصدق حبه، وكيف لا وقد توحل الأرض، حيث يقول أحدهم:

بِـــعَيْنِي دُمُـــوعٌ لَـــوْ جَرَيْنَ بِقَفْرَةٍ لَأَضْحَتْ بِقَاعَ الأَرْضِ مِنْ مَلْئِهَا وَحْلاَ[2]

كذلك محمد جربوعة اتخذ في الدمع أحلى مذهب في " درس في تدريب العينين على حب ابن آمنة " صلى الله عليه وسلم، فيقول:

إِنْ قُلْتُ (أَحْمَدُ) فابكِ مِنْ شَوقِ النَّبِي لاَ خَيْرَ فِي عَيْنَيْكَ إِنْ لَـمْ تَسْكُـــبِ

عَـــاتِبْهُمَـــا..هَيِّجْهُمَـــا..اعْصُرْهُمَـــا واسْكُبْهُمَـــا كَـــأَسَـــيْ دُمُـوعٍ واشْـــرَبِ

إِنْ لَـــمْ تُـــجرِّبْ نَثْرَ دَمْعِكَ عَـــاشِقًـــا كَـــالْيَـــاسَمِيـنِ لِـبَدْرِ مَكَّـةَ جَـرِّبِ

إِنْ كَـــانَتَـــا قَـــدْ جَـــفَّتَـــا..فَـــاتْرُكْهُمَـــا واقْـرَأْ كِـتَـــابًـا فِـي الْهَـوَى وَتَـــدَرَّبِ

عَلِّمْهُـمَـــا طُـــرُقَ الْبُكَـــاءِ، بِسَيْطِهَـــا كَـــصَبِيَّتَيْنِ صَغِـــيرَتَيْـنِ بِـــلاَ أَبِ

وَاسْـــأَلْهُمَـــا هَـــلْ تَـعْشَقَـــانِ مُحَمَّـــدَا؟ إِنْ لَـــمْ تُـــجِيبَـا جَيِّـــدًا، لاَ تَـغْضَـبِ

اصْبِـرْ قَلِيـــلاً..ثُـــمَّ قُـــصَّ عَلَيْهِمَـــا عَـــنْ قَـلْبِـهِ الحُلْـو الكَبِيرِ الـــطَّيِّبِ

---

[1] محمود محمود الغراب: الحب والمحبة الإلهية، ص 101.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

فَـسَتَقْطُـرَانِ كَـغَيْمِ صَيْـفٍ سَـاخِـنٍ مَـا أَرْوَعَ الإِذْعَـانَ بَـعْدَ تَـصَلُّبِ

(الله أكبـرُ)..(رَوْعَـةٌ مَـا بَعْدَهَا..) سَجِّـلِ لَهَـا تَـارِيخَهَـا..وَلْـتَكْتُبِ:

((اَلْـيَوْمَ عَيْنِـي بَـعْدَ جَـدْبٍ أَزْهَـرَتْ وَحَنِيـنُ قَـلْبِي للـرَّسُولِ اشْتَدَّ بِي))

عَيْنَـاكَ هَـزَّهُمَـا الْحَبِـيبُ فَـرَقَّـتَـا فَـاخْتَارَتَـا فِي الدَّمْعِ أَحْلَـى مَذْهَبِ

قَـبِّلْهُمَـا إِنْ كُـنْتَ تَـقْدِرُ..بُـسْهُمَـا لَـوْ فَـوْقَ مِـرْآةٍ..بِـكُـلِّ تَـأَدُّبِ

وَاشْكُـرْهُمَـا إِذْ كَـانَتَـا فِي الـمُسْتَـوَى واهْتَـزَّتَـا شَوْقًـا لِسَـاكِـنِ يَـثْـرِبِ[1]

إذن الاستناد إلى البكاء والدموع والتحريض على انهمارها سمة خاصة من سمات الصوفية، وقد جعلها " محمد جربوعة " أيضا من سمات قوله في الحبيب المصطفى فالقلوب تبكي شوقا بصدق لمن بكى شوقا لها قبل أن يلقاها.

ج – في الاصطلام واللوعة والحزن:

" الاصطلام نار ترد على قلوب المحبين، تحرق كل شيء تجده ما سوى المحب، وقد

تذهب في أوقات بصورة المحبوب في نفس المحب...فيقال فيه في ذلك الحال مصطلم[2]،ويقول فيه أحدهم:

أَوْدِعْ فُـؤَادِي حَـرْقًـا أَوْ دَعِ ذَاتَـكَ تُوذِي أَنْتَ فِي أَضْلُعِـي

وَارْمِ سِـهَـامَ الْـحُبِّ أَوْ كُفِّهَـا أَنْتَ بِمَـا تَرْمِي مُصَـابٌ مَعِي

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 45- 46- 47.

[2] محمود محمود الغراب: الحب والمحبة الإلهية، ص 91.

مَوْقِعُهَـــا القَـــلْبُ وَأَنْـتَ الـــذِي تَسْكُنُـــــهُ بِـــذلِكَ الـــمَوْضِعِ[1]

أما عن اللوعة فهي حرقة الهوى[2]، وقيل فيها:

إِنِّـــي وَجَـــدْتُ الـــهَـوَى إِذْ رَكَـــدَا كَـالنَّارِ بَلْ زَادَ جَـوْفَ الصَّدْرِ مُتَّقَدَا

النَّـــارُ تُطْفَئُ بِبَرْدِ المَـــاءِ إِنْ ضُرِمَتْ وَلَـــوْ ضَرَبتُ الـهَوَى بِالمَاءِ مَا بَرَدَا[3]

أما عن الحزن فهو " أصعب المحبة وأشقُّها، فإنه مأخوذ عن الحزن الذي هو الوعر ،وهو ينزل بالمحب إذا ارتفع صبره ورحل عنه "[4]، وقيل في هذا:

إِنْ لِـــلْـــحُـــبِّ دَلاَلاَتٌ إِذَا ظَهَرَتْ مِنْ صَاحِبِ الحُبِّ عُرِفَ

صَـــاحِبُ الحُبِّ حَـــزِينٌ قَلْبُهُ دَائِـــمُ الغصّـــةِ مَهْمُـومَ دَنَـــفَ[5]

أما عن " محمد جربوعة " فيقول في شوقه لنبيه، ورغبته في نعيم الزيارة والظفر بجميل الوصال بزيارةطيبته:

والـــكُلُّ مُشْتَـاقٌ وَيُخْفِي عِشْقَـــهُ بِـــضُلُوعِـــهِ، وَيُعِينُـــهُ مَـــولاَهُ

مَـــنْ قَالَ(أَحْمَدُ) طَفْطَفَتْ نِيرَانُهُ فِـــي صَـــدْرِهِ..واغْرَوْرَقَتْ عَيْنَـــاهُ[6]

ويقول أيضا:

وَأَمُـــدُ كَفِّـــي نَحْوَ (طَيْبَةَ) ذَائِبًـا فَهُنَـــاكَ حَـــارِقُ أَضْلُعِـي المُحْبُـــوبُ

---

[1] محمود محمود الغراب: الحب والمحبة الإلهية، ص 91.

[2] المرجع نفسه، ص 92.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسه، ص97.

[5] المرجع نفسه، ص 98.

[6] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 105.

وَأَبِـيتُ أَخْتَصِـرُ المَسَـافَةَ نَحْوَهُ والـدَّمْـعُ فَـوْقَ وِسَـادَتِـي مَسْكُـوبُ

رُوحِـي حَمَـامَةُ قُبَّةٍ طَـارَتْ لَـهُ لاَ صَبْـرَ عِنْـدِي..مَـا أَنَـا أَيُّـوبُ[1]

ويقول محمد جربوعة عشقا وحرقة لنبيه عليه أزكى الصلوات والتسليم:

خُفِّـي عَلَيَّ فَـإِنَّنِـي عَشَّـاقُ قَلْبِـي رَقِيـقٌ كَـالنَّـدَى رَقْـرَاقُ

وَأَذُوبُ إِنْ مَـرَّ الحَمَـامُ مُشْرِقًـا وَعَـواطِفِـي بِسُهُـولَـةٍ تَنْسَـاقُ

فَـإِذَا سَمِعْتُ اسْمَ النَّبِيِّ اشْتَدّ بِي لَـهَبُ القُلُوبِ السَّـاخِنُ الـحَرَّاقُ

وَنَمَـا جَنَـاحٌ فَوْقَ قَلْبِي..صَدِّقِي وَتَـوَسَّعَتْ بِمَحَـاجِرِي الأَحَـدَاقُ[2]

(...)

مَـا هَزَّ حَـادِي العِيسِ لَحْنًـا نَحْوَهُ إِلا وَهَـزَّتْنِـي أَنَـا الأَشْـوَاقُ

أَهْذِي كَمَحْمُومٍ..وَلِيعْذُرِي..وَبِـي وَجَعُ الـذِي مَـا عِنْدَهُ تِرْيَـاقُ[3]

ويقول أيضا واصفا حاله لما اشتد به شوق النبي عليه الصلاة والسلام :

لَكِنَّنِـي الآن فِـي جَوٍّ يُضَمِّدَنِـي أُضَمِّدُ الجَـوَّ، مَجْرُوحَيْنِ نَشْتَعِـلُ

أَلاَ تَـرَيْنَ بِـأَنِّي مُمْسِكٌ بِيَـدِي صَـدْرًا تَـدَمِّرُهُ الأَحْزَانُ وَالعِلَـلُ؟

حِمْلُ المَوَاجِعِ فَوْقَ الظَّهْرِ يَقْصِمُنِي إِنِّـي تَعِبْتُ وَأَحْنَى قَـامَتِي الثِّقَـلُ[4]

---

[1] محمد جربوعة: قدر حبه، ص 108.

[2] المصدر نفسه، ص 105-106.

[3] المصدر نفسه، ص 107.

[4] المصدر نفسه،ص93.

إذن تتبدى المزية الواضحة للغة الصوفية أو الأسلوب الصوفيفي اللغة والأسلوب الشعري " لمحمد جربوعة " في " ديوان قدر حبه "، وإذا قلنا شعر صوفي يعني أسلوب وصياغة لا يضاهيان، وما إن لمسنا ذلك في تجربة شعرية، إلا وإن صاحبها وصل حالة العجز إزاء الكشف عن مشاعر أشبهت زبد البحر في اضطرابها، والنار في واضطرامها وفي المقابل هناك جماعة اختصرت في البوح بذلك مسافات طويلة، كانت بمثابة صعقة الإنعاش التي تبعث أمل الوجود من جديد، كذلك هي اللغة الصوفية بالنسبة للشاعر "محمد جربوعة "، كانت بمثابة باعث الأمل للكشف عن شوقه وحبه الصادق للحبيب الذي للبوح بحبه وجب اتحاد اللغات – عليه أزكى الصلوات والتسليم –.

فكان بذلك بلاغة الأسلوب الصوفي بالنسبة " لمحمد جربوعة " أشبه بالصورة الشعرية التي تضفي على المعنى جمالا وتفرضه على مخيلة المتلقي، الذي يقنع لا محالة ما إن استنشق أريج اللغة الصوفية، مع الرأي المجمع بأن الصوفية كانوا من أقطاب الأدب والبيان، وحسب " زكي مبارك " أن الجاحظ في اهتمامه بهم لاحظ فيهم شيأين: جودة الأدب وقوة الأخلاق[1]، والشاعر محمد جربوعة لما كان اهتمامه بالأخلاق المحمدية، والتي تيم صاحبها قلبة، استكمل للكشف عنها بأدب الصوفية فكان له المزية الواضحة في الاستزادة للملكة اللغوية للشاعر.

[1] زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص70.

خـــاتـــمـــة

خاتمة

بعد دراسة موضوع البعد الديني في ديوان قدر حبه لمحمد جربوعة، خلصنا إلى مجموعة من النتائج كان أهمها:

إن الدين برحابة مثله ومبادئه استطاع أن يفتح صدره لانفعالات الفنان، فكان ينبوعا للمضامين الفكرية والفنية، ومصدرا من مصادر إثرائها ونضوجها، ومعتقد الأديب ذو أثر واضح على إنتاجه الأدبي وجزء كبير من الإطار العام لتجربته الشعورية.

إن الأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة لا ينفك في – أي مرحلة من مراحله – أن يكون وعاء للفحوى الديني، ومن ثم لا ينفك من أن يكون أدبا هادفا يحققه التناغم الحاصل بين المعطيات الجمالية والفنية للمسوغ الإبداعي للشاعر مع مرامي العقيدة الإسلامية، والذي سيمكن للمعنى الديني فرصة توجيه سلوك المتلقي وما ينتج عنه وفق ما سنه هذا الدين الذي يمثل منشأ لكل سلوك سوي.

إن الشاعر محمد جربوعة ممن حمل لواء المنطلق العقدي، والحاصل من خلال خطابه الشعري، حيث مثلت المرجعية الدينية لمجموع شعره حجر الأساس، فكان التمدح بأخلاقه عليه الصلاة والسلام قوام " ديوان قدر حبه "، وكانت السنة النبوية هي المصدر الأول الذي اعتمده الشاعر لتأكيد فكرته وتحقيق مبتغاه.

بدا تأثر محمد جربوعة جليا بعيون الشعر من قصائد المديح النبوي التراثية، فاشتركت الصفات الواردة بينه وبين " البوصيري " مثلا و " حسان ابن ثابت "، مع

اختلاف في طريقة التقديم، حيث ركز " محمد جربوعة " على تصوير تلك المواقف للرسول الكريم في تقديم آدابه ولم يتقدم بها مباشرة.

أكثر ما اهتم به محمد جربوعة في مدحه ووصفه للنبي صلى الله عليه وسلم هو الجانب الروحاني الداخلي، ولأن العاطفة الغالبة في مجمل قصائد الديوان هي محبة الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام ارتبط المديح بالحب الذي يستوجب تلك الصفات التي كانت سببا لهذا الحب، وهي الصفات المتعلقة بمزاياه صلى الله عليه وسلم الروحية والخلقية والإيمانية في المقام الأول.

أثناء تقديم الشاعر لهذه الصفات السامقة، وكأنها تلقى على مسامعنا تلك النبرة العتابية التي تحيل إلى مقصد أو مرمى الشاعر الأساسي، وهو توجيه الناس وتذكيرهم، بِعِظَمِ من كان لهم فيه أسوة حسنة، فأين هم من هذا؟.

خلال تجوالنا بين قصائد ديوان " قدر حبه " لمحمد جربوعة نلتقي وسمة أساسية لخطاب الفحوى الديني ألا وهي فن الزهد، الذي مَتَّن به محمد جربوعة قوله في هذا الديوان، فكان الذود عن المرأة واللجوء إلى الروحانية الدينية وجهٌ تشكلت به التمظهرة الزهدية الخاصة بالشاعر، كما كانت معارضة نسيب بردة الشاعر " كعب بن زهير " أمر نوه به جربوعة لمبدإ العفة في الدين، فليس كل ما يُرْغبُ يُؤْتَى أو يتسنى للمؤمن الظفر به، ويسمح ذلك فقط لمَّا تُعَدُّ أخلاقيات ديننا المبجل.

خاتمة

دعم محمد جربوعة باللغة الصوفية أو الأسلوب الصوفي آليته الشعرية،فبإسراره على الخوض في بحار حب من سبانا بخلقه الكريم، نلحظ لجوءه بعد كل محاولاته ومكابداته إلى جو الصوفية يستقي منه بعض المُعينات، عسى أن تكون خيرَ من يأخذ بيده إلى ما يقابل ما يكنه ذلك الفؤاد الذي يفيض حبا عشقا وهياما لحبيب الله، حبيب الورى.

قـائمة الـمصـادر والـمراجـع

***القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.**

المصادر:

1- محمد جربوعة : قدر حبه، البدر الساطع للطباعة والنشر، د ب ، الطبعة الأولى 2014.

2- محمد جربوعة: ديوان الساعر، البدر الساطع للطباعة والنشر، د ب، ط 1، 2014.

المراجع:

أولا-المراجع العربية:

1- إبراهيم محمد منصور: الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر دار الأمين، مصر ، ط 1 ، د ت .

2- شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، مصر الطبعة الثامنة ، د ت .

3- شوقي ضيف: العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، مصر ، الطبعة السابعة د ت .

4- رجاء عيد: فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، منشأة المعارف د ب، ط 1، 2000.

5- عبد السلام ياسين: الإحسان، الجزء الأول، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، المغرب ط 1، 1998.

6- عبد السلام ياسين: المنظومة الوعظية، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 1996.

7- عبده غالب أحمد عيسى: مفهوم التصوف، دار الجيل، بيروت، لبنان،ط1، 1992.

8- علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، مصر ط 9، د س، ج 3.

9- محمد ابن أبي الخطاب القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام تحقيق علي محمد البجاري، دار نهضة مصر، مصر، د ط، دس.

10- محمد توفيق: الأمثال العربية والعصر الجاهلي (دراسة تحليلية)، دار النفائس، د ب ط 1، 1988.

11- ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل " إياك نعبد وإياك نستعين "، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2003 الجزء الثاني.

12- محمد قطب: مناهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط 1 ،1973.

13- محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 1، 1963.

14- محمد يحيى الحلو: البردة شرحا وإعرابا وبلاغة، دار البيروتي، دمشق، سوريا ط 3 ،2005، ص 227،226 .

15- محمود محمودالغراب: الحب والمحبة الإلهية، مطبعة الكاتب العربي، دمشق سوريا، الطبعة الثانية، 1992.

16- مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين بيروت، لبنان ، ط 1 ، 1986.

17- ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض، المملكة العربية السعودية ، ط 1 ، 1990، المجلد الثاني.

20- نجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ، ط 1 1987.

21-ابن حجة الحموي: شرح قصيدة كعب بن زهير " بانت سعاد " في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق علي حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية ،ط 1، د ت.

22- أبي حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 2005.

23- حسان بن ثابت : ديوانه، شرح عبدا مهنا، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1994.

24- إحسان إلهي ظهير : التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، لاهور باكستان ، ط ، 1986.

25- عمر ابن عمر الجاحظ : البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي ، القاهرة، مصر، ط 7، 1998، ج 3.

26- محمد بن إسماعيل البخاري : الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، دار الصديق الجبيل، المملكة العربية السعودية ، ط 2 ، 2000.

27- محمد بن يزيد القروينى: سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د ب ، د ط، د ت ، ج 2 .

28- خالد خليفة السعد : خطب الشيخ القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، د ت ج 9.

29- زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مؤسسة هنداوي للتعليم، القاهرة، مصر والثقافة، ط 1 ، 2012.

30- سراج الطوسي : اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر، ط 1 1960.

***ثانيا*- المراجع المترجمة:**

1- بنيلوبيمري: العبقرية تاريخ الفكر، ترجمة- محمد عبد الواحد محمد، دار عالم المعرفة، د ب، ط 1، 2000.

المعاجم والقواميس:

1- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، دط، الجزء الثالث، بيروت، لبنان، د ت، ص 196،197 .

2- إسماعيل بن محمد الجوهري : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 4، 1990، ج 2، مادة زهد ص 481 .

3-الفيروز آبادي : القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ، ط 8 ، 2005 ج1، مادة زهد، ص 286.

4-حسن الشرقاوي:معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ط 1، 1987.

الرسائل الجامعية:

1- بولعشارمرسي: الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة -ابن الفارض- أنموذجا، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في الأدب العربي، إشراف الدكتور أحمد مسعود، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والفنون، جامعة وهران، 2015.

2 -دليلة مكسح: المرجعيات الفكرية والفنية في شعر ياسين بن عبيد، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، إشراف الدكتور علي عالية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 20063

3- ماجدة بن محمد الماجد : الأدب الإسلامي مراجعات في النشأة والخصائص بحث ترقية، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية.

المواقع الإلكترونية:

1- محمد جربوعة : بيان الشاعر العربي محمد جربوعة حول مسابقة أمير الشعراء،-9 www.aswat-elchql.com/ar/?p=98&a=12854.،11-2010

2- محمد جربوعة: أمسية شعرية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2017-03-18، https://www.youtube.com/watch?v=eMewvisql

فهرس

الموضوعات

فهرس الموضوعات

شكر وعرفان .....

مـــقدّمـــــة .....أ

تـمهيد 5

الفصل الأوّل: صورة الرسول عليه الصلاة والسلام في ديوان " قدر حبه " لمحمد جربوعة في ضوء قصيدة المديح النبوي

توطئــة: 13

أولا– التمدح بآدابه وأخلاقه وفضائله عليه الصلاة والسلام : 16

1– في فضل هدايته عليه الصلاة والسلام : 17

2– في طيب نفْسه وجمال سيرته عليه الصلاة والسلام : 20

3–في رحمته عليه الصلاة والسلام : 22

4– في مبادئه عليه الصلاة والسلام : 23

5 – في تعامله عليه الصلاة والسلام : 24

ثانيا–الاعتراف بالعجز عن الإحاطة بمدحه عليه الصلاة والسلام: 34

الفصل الثّاني

حب الرسول في ديوان " قدر حبه "لمحمد جربوعة

توطئــة 45

أولا: ملامح زهدية في " قدر حبه ": 47

1–مفهوم الزهد: 47

2– الزهد والشعر: 50

3-زهد محمد جربوعة في " ديوان قدر حبه " : 55
ثانيا: اللغة الصوفية في ديوان " قدرٌ حبُّهُ ": 67
1- مفهوم التصوف: 68
2- الشعر والتصوف: 71
3-ملامح اللغة الصوفية في " ديوان قدر حبه ": 73
خـاتـمـة 82
قـائمة الـمصـادروالـمراجـع 86
فـهرسالــموضوعـات .....

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة البعد الديني في ديوان " قدر حبه لمحمد جربوعة " وهو مكون من فصلين تطبيقيين تسبقهما مقدمة وتمهيد، حيث تناول التمهيد أهمية البعد الفكري بالنسبة للإبداع الشعري وعلاقة البعد الديني بهذا المبدع الجمالي، أما الفصل الأول، فقد تناول صورة الرسول عليه الصلاة والسلام في ديوان " قدر حبه " لمحمد جربوعة، فتراوحت بين التمدح بآدابه وأخلاقه، والاعتراف بالعجز عن الإحاطة بمدحه عليه الصلاة والسلام، وتضمن الفصل الثاني، حب الرسول في هذا الديوان، إذ تناول ملامح زهدية في ديوان " قدر حبه " لمحمد جربوعة، تأكيدا به على مبدأ العفة في إسلامنا النزيه، وتناول العنصر الثاني ملامح اللغة الصوفية في هذا الديوان، فكانت هته اللغة بطبيعتها المميزة في التعبير عن المعاني الوجدانية والروحية خير معين للشاعر في القول في حب سيد الأخلاق عليه أزكى الصلوات والتسليم.

Abstract

Our research is a simple study which looks for studying the religious side in Mohamed Gerboaadiwan" kadarohobihi ". This research is made two applied chapters preceded by an introduction and preface. This last studies the intellectual dimension in according with poetic creativity and its relation with the religious side in the diwan. Chapter one studies characteristics of our prophet Mohammed peace be upon him in Mohamed Gerboaadiwan "kadarohobihi" ,it ranged between the praise with his morals and the recognition by the incapability of doing that. Chapter two showing the love of our prophet peace be upon him in this diwan. It studies two elements , the first one studies the attributes of asceticism in diwan "kadarohobihi "in Mohamed Gerboaa ,insisting the principal of chastity in our fair islam. And the second element studies features of sufi language in this diwan. This language has distinctive nature to expressing of emotional and spiritual meanings the best helper to the poet in saying on our prophet Mohammed peace be upon him.